الأرمن يتذكرون

١٩١٥

الذكرى الخمسون

للمجزرة

الأرمن يتذكرون

١٩١٥

الذكرى الخمسون للمجزرة

بمناسبة إحياء الذكرى الخمسين لمذابح الأرمن في عام ١٩١٥ ، فرر مكتب المعلومات الأرمني في بيروت ، الاسهام بنصيبه الوضيع في الحداد الشامل للأمـــة الأرمنية ، وذلك بنشر هذه المعلومات والدراسات المختصرة عن الفاجعة المؤلمة .

إن هذه الدراسات هي عبارة عن قصة للفظائع التي إرتكبها الأتراك ، كما أنه بحث يبين أسباب هذه المجازر الرهيبة ونتائجها . إن ذلك يشكل أحلك صفحات التاريخ الأرمني ، ويحللها تاريخياً ، وسياسياً ، وثقافياً ، وقانونياً ، على أمل ان تؤدي ، هذه الدراسات الموضوعية ، إلى توضيح الفاجعة المشؤومه التي أدَّت إلى إزهاق أرواح مليون نسمة ونيف .

٢٤ نيسان ١٩٦٥ مكتب المعلومـــات الأرمني

بيروت ــ لبنان

٢٤ نيسان ١٩١٥

فى الرابع والعشرين من نيسان كل عام ، يجتمع أبناء الشعب الارمني المنتشرين فى جميع قارات العالم ، فى كنائسهم وأماكن اجتماعاتهم العامة لتشييع ذكرى استشهاد آبائهم وأجدادهم ، واخوانهم وأبنائهم .

لقد ابتلى الارمن بصورة متتابعة بالاحتلال السلجوقي ، والمغولي والعثماني وبالاهوال المترتبة على هذا الاحتلال ، بعد ان فقدوا استقلالهم فى الوطن الام فى القرن الحادي عشر اولا ، ثم فى كيليكيا الارمنية فى القرن الرابع عشر ثانيا ، فليس من الغريب ان تكون المذابح والكوارث متواصلة فى القرون الاخيرة من حياة الشعب الارمني . ولكن ذلك الذي نظم ونفذ من قبل قيادة الدولة العثمانية المتعطشة للدماء فى ايام الحرب العالمية الاولى ، كان شيئا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسانية مطلقا . لقد شرد الجزء الهام من شعب عتيق الحضارة وغنيها من داره وذبح بوحشية متناهية فى بوادي العراق وسورية حسب برنامج مخطط ومهارة فائقة . لقد ذهل الرأي العام العالمي امام هذا العمل البربري الذي كانت احداثه تجري فى القرن العشرين ، قرن عرف بالحضارة والتمدن ، ولكن لم يستطع بحكوماته العظيمة ومجالسه الدولية ان يوفق لا الى وقف الجريمة الكبرى التي كانت ما تزال مستمرة فحسب ، بل لم يوفق ايضا بعد الكارثة الى تطبيق العدالة بمعاقبة المجرمين وتعويض المتضررين الابرياء .

وقد مر خمسون عاما على تلك الايام المشؤومة والان يحتفل الارمن أجمع بذكرى اكثر من مليون شهيد لهم . هل العدالة سوف ترفع صوتها عاليا هذه المرة ؟ لسنا ندري . ذلك من اختصاص المنظمات الدولية وفى نفس الوقت ان مقياس حسن نيتها ونفوذها . فالاحداث

والحقائق تبين بصورة اوضح كيف ولماذا نفذ ذلك العمل الاجرامي او التقتيل الجماعي الذي من الصعب وصفه • ولعل من المستحسن ذكرها وتذكيرها ايضا لكل الذين يميلون الى تناسي حقيقة واقع الانسان والانسانية ، تلك الحقيقة التي بدونها يتعرض السلام العالمي والازدهار الحر لخطر عظيم •

القضية الارمنية حتى الحرب العالمية الاولى :

كانت ارمينيا الغربية الواقعة تحت ظل الاحتلال العثماني تعاني من ظروف قاسية • كان الوجود الارمني فى عقر داره معرضا دائما لظلم الحكومة التركية وهجمات العشائر الكردية الجائعة • كان هذا كله يستهدف طبعا شيئا واحدا هو ايجاد ظروف للارمن لاتطاق فى وطنهم وتفريقهم فى المناطق النائية المختلفة للامبراطورية الواسعة •

وقد ادى الظلم المتزايد فى المناطق الارمنية فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى اهتمام البطريركية الارمنية فى القسطنطينية باحوال الارمن وامنهم بجدية اكثر • وكان الاعتقاد بان تركيا لم تعد قادرة على اصلاح نفسها والانسجام فى العالم المتمدن الحديث وقد ساد فى الاوساط الارمنية والعالمية بعد ان فشلت ولم تنفذ من قبل السلاطين الاتراك السابقين الوعود الرسمية بادخال الاصلاحات العامة التي بقيت حبراً على ورق • وكانت النتيجة ان ظهرت فى بعض الشعوب المحتلة نزعات انفصالية وفى البعض الاخر ، كالارمن مثلا ، الفكرة القائلة بان تحسين احوالهم لا يأتي الا عن طريق تدخل الدول الاوروبية الكبرى •

وكانت الحرب الروسية ــ التركية فى سنة ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ فرصة طيبة لرفع القضية الارمنية الى اللجنة السياسية الدولية حيث ، باتباع الخطوة اللبنانية ، كان الارمن يرمون الحصول على استقلال داخلي ، وفى الواقع لم تتعد هذه المحاولة المطالبة بحقوق والتزامات متساوية مع الاتراك • ولكن صراع الدول الكبرى ، وبخاصة الصراع الانكليزي ــ الروسي ، كان سببا فى فشل محاولة الارمن فى حصولهم على بعض

الحقوق • وقد قبلت تركيا ، من جهة اخرى ، واستنادا على المادة رقم ٦١ من معاهدة برلين ، بادخال الاصلاحات الى المناطق الارمنية ، تحت اشراف الدول الكبرى •

وقد انحصرت القضية الارمنية حتي الحرب العالمية الاولى ، في نطاق المادة رقم ٦١ • ولكن رغم هذا لم تقم الحكومة العثمانية باية خطوة عملية لوضع التزاماتها موضع التنفيذ • وقد قام السلطان عبد حميد الثاني الذي كان قد بدأ يحكم الامبراطورية حكما استبداديا بتبني سياسة اضطهاد وتقتيل منظمة ضد الارمن ، منتهزا تنافس الدول الكبرى ، وكان الاكراد فى أرمينيا والاتراك المحافظون والمتعصبون تعصبا أعمى كانوا انجح سلاح فى يده • وقد استطاع بواسطة هذا السلاح ان يبقي الشعوب المختلفة فى تركيا مدة ٣٣ سنة (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩) تحت ضغطه القوي • ولم تعد سياسة حميد هذه بخير على تركيا نفسها • فقد ثارت شعوب البلقان أيضا نتيجة هذا الاستبداد والظلم المترتب عليه • حتى العالم الاسلامي أخذ يقاوم الخلافة العثمانية • فلم يبق للارمن الذين صبروا كثيرا على طغيان حميد ، وتجاهل الحكومات الغربية لقضيتهم ، الا ان يلجأوا الى الدفاع عن انفسهم بواسطة السلاح • فقامت المنظمات والاحزاب الثورية • وكانت نتيجة هذا ان ضاعف السلطان حميد المذابح التي كانت تذهب ضحيتها الآلاف المسالمة العزل • وقد سالم هذا السلطان الأكراد وانتهز الخلافات الداخلية بين الدول الاوروبية والموافقة الصامتة لبعض الدول الاخرى ، فامر بمذابح صاصون فى سنة ١٨٩٤ اولا ومن ثم بالمذابح الارمنية العامة التي ذهب ضحيتها ٢٠٠،٠٠٠ من الارمن بين السنتين ١٨٩٥ و ١٨٩٦ • وبالرغم من ان لجنة تفتيشية دولية أثبتت فى كل مكان اشتراك الدولة التركية فى هذه المذابح وتنظيمها ، الا ان المجرم الكبير ظل بدون عقاب مرة أخرى •

وكان من نتيجة هذه الاعمال الوحشية التي جرت أحداثها فى مدخل القرن العشرين ان انكشفت المشكلة الارمنية للرأي العام العالمي بكل وجوهها الدامية • ولكن مع هذا لم تكن السياسة الاوروبية قادرة على الاتفاق مع تركيا حول برنامج اصلاحات شاملة وتكليفها به •

وكان النظام الحميدي قد بات مستحيلا احتمالـه حتى لدى بعض الاوساط التركية الوطنية التي كانت ترى بوضوح اقتراب الامبراطوريـة من الهاوية • وكانت المعارضة تنمو وتقوى بتجمع الشخصيات المنفية والفارة الى أوروبا • وقد حاول هؤلاء،وكان لهم أيضا مؤيدون فى قيادة الجيش التركي ، تأليف جبهة معارضة قوية من مختلف الشعوب التابعة للدولة العثمانية • وكان هدف هذه الجبهة تنحية السلطـان عن الحكـم وتشكيل حكومة شعبية فى القسطنطينية • وقد توسعت منظمة « الاتراك الشباب » هذه التي كانت تعرف باسم « الاتحاد والترقي » « في جيش سلانيك التركي بصورة خاصة • وقد زحف هذا الجيش فى تمـوز عام ١٩٠٨ على القسطنطينية حيث هرع السلطان الى اعلان « الدستور » • وقد ابتهجت جميع شعوب تركيا بهذا الحدث العظيم الذي كان انتصـارا للآراء الثورية والاهداف التحررية • وقد تعانق الارمن والاتراك واليونان والمقدونيون فى الشوارع واطلقت حرية الكلام والديـن والصحافة • وأعلنت أيضا المساواة بين الشعوب •

وقد مرت ثورة « الشباب الاتراك » هذه بأزمتها الشديدة الاولى فى نيسان ١٩٠٩ عندما استغل السلطان حميد عدم رضاء الرجعيـة والتعصبية التركيتين عن الثورة ودفعهما الى العمل • وقد استطاعت هذه القوى بمساندة قسم من الجيش ، الحصول حتى على الحكم • وكان من أول أعمال هذه الحكومة تنظيم مذبحة أرمنية فى أضنه وكيليكيا • وقد أسفرت هذه المذبحة عن استشهاد ٣٠،٠٠٠ من الارمن ، ولم تتوقف الا عندما زحف الجيش الثوري فى سلانيك على القسطنطينية مرة ثانية وسلم الحكم للاتحاديين بعد أن خلع السلطان من عرشه • كما هـو ظاهر ، فان بهجة المدة التي تلت الدستور لم تدم طويلا ، فلم يكن من المستطاع قهر الرجعية التركية فحسب ، بل « الاتراك الشباب » أنفسهم لم يستطيعوا أو لم يريدوا وضع الحكم الجديد على طريق التجديد العصري ، وذلك بالاعتراف بحقوق الاقليات الوطنية • وقد وقعوا أيضا فى خطأ من سبقهم فى نظرتهم الى العنصر التركي كالطبقة الحاكمـة الوحيدة والمتمتعة بالامتيـازات المطلقة • وقد ساعدوا بهذا على انماء النزعات الانفصالية لدى الشعوب

المغلوبة على أمرها • وقد بالغوا كثيرا فى التعصب والوطنية الضيقة حينما تبنوا سياسة تتريك العناصر الاخرى فى الدولة العثمانية • وقد لجأوا الى اساليب قاسية حتى فى معاملتهم للشعوب الاسلامية التي ثارت فى اليمن وفلسطين والعراق • وقد ادت هذه السياسة الظالمة مع ارجاء تنفيذ الاصلاحات الى اقدام الدول البلقانية التي حصلت على استقلالها ، على رفع السلاح لتحرير جاراتها الشقيقات او المنتسبات لاديانها • وبالرغم من خروجها خاسرة فى الحرب البلقانية فقد غاصت تركيا الان فى مغامرة انشاء امبراطورية طورانية شاملة •

كان العنصر الارمني من بين الشعوب العديدة من غير الاتراك فى الامبراطورية العثمانية ، هو وحده الذي كان متمسكا بحرارة بفكرة الدستور ، ويتعاون مع « الاتراك الشباب » لبناء دولة جديدة حديثة وذلك لايمانه بان هذه الدولة الجديدة سوف تمنح شعوب امبراطوريتها الواسعة فرصة التنظيم المحلي والحقوق الادارية لتنمية وتقويم كيانها الوطني والثقافى والاقتصادي • ولكن هذه الامال ضاعت كلها • فالاصلاحات التي كان من المقرر ادخالها فى المناطق الارمنية لم تنفذ • ولم يعاقب اعتداء الموظفين الاتراك والعشائر الكردية على اموال واملاك المواطنين الارمن • وحسب برنامج مخطط اتت الحكومة التركية باللاجئين الاتراك الهاربين من البلقان واسكنتهم فى اراضي ارمينيا محاولة منها جعل مطالبة الارمن باراضيهم المغتصبة شيئا مستحيلا •

فى هذه الظروف حاول الارمن مرة اخرى فى سنة ١٩١٢ اللجوء الى السياسة الاوروبية لكي ترغم هذه الاخيرة تركيا على تطبيق الاصلاحات المتفق عليها فى مادة رقم ٦١ من معاهدة برلين على الاقل • وقد وقفت روسيا وفرنسا وانكلترا بجانب مطالب الارمن • لكن المانيا فى دور حامي مصالح الاتراك الشباب ، استطاعت ان تخفض مجال هذه الاصلاحات الى حد بعيد • واخيرا ، وفى الثامن من شباط عام ١٩١٤ اصبح من الممكن توقيع الاتفاقية الروسية ــ التركية التي كانت بموجبها المناطق الشرقية السبعة السابقة تنقسم الى منطقتين مع ارزروم و وانكمركزين لهما • وقد تقرر ان يشرف على كل من هاتين المنطقتين مفتش عام اوروبي ، الذي كان سوف

يشرف على الموظفين ، والاعمال الادارية ، وتطبيق العدالة • وسوف تشكل برلمانات محلية وقوات الشرطة والامن العام ، وكان الارمن سيحصلون فى كل هذا على اماكن ووظائف متساوية مع الاتراك او حسب عددهم • وكان المفتشان المعينان هما « هوف » النروجي و « ويسدينيك » الهولندي • وكان الاول منهما قد وصل الى مقر عمله عندما انفجرت الحرب العالمية الاولى • وقد انتهزت الحكومة التركية التي كانت قد رضخت لهذه التدابير رغم ارادتها ، الفرصة السانحة فسرحت من وظيفتهما الحاكمين المعينين واخرجتهما من البلاد •

الحرب العالمية الاولى وبرنامج الاتراك :

فى اوائل عام ١٩١٤ كانت اوروبا منشغلة بالحرب الكبرى وكانت المانيا والنمسا وهنغارية من جهة، وفرنسا وانكلترا وروسيا من جهة اخرى ، قد قامت ضد بعضها مع حليفاتها الاخرى • وقد اعلنت تركيا التي لم تدخل الحرب، التعبئة العامة • وكان الجو السائد فى الاوساط التركية العليا يوحي بان تركيا ستدخل المعركة الى جانب المانيا • وقال الجنرال « فون ساندرز » المدير العام للجيش التركي منذ عام ١٩١٣ والجنرال « شفيلينند روف » رئيس اركانه ، كما ان كثيراً من الضباط الاخرين كانوا يدربون الجندي التركي على استعمال الاسلحة الالمانية قبل اندلاع الحرب • وقد آمن الاتراك فى النصر الالماني وكانوا يرون فى الحرب الفرصة الذهبية لتحقيق حلمهم القديم العزيز : بمساندة المانيا وبقوة السلاح سحق السد الروسي الذي كان يفصل بينهم وبين اخوانهم التتر والتركمان والاوزبيك والمزخز فى قوقاس وتركستان بحيث كان باستطاعتهم مع هؤلاء انشاء امبراطورية طورانية واسعة تكون رابطتها الفكرية قومية اكثر من دينية • وكانت الدعاية الخطية والعلانية بهذا الاتجاه قد جرت من قبل • فالشعراء والرواد الذين قد مجدوا وتغنوا بالاهداف التركية والطورانية منذ القديم• فكانت ساعة العمل قد دنت الان لهؤلاء جميعاً .

وكان الارمن فى نظر « الاتراك الشباب » احد العوائق فى تحقيق خطتهم الطورانية اذ ان الارمن لم يمتوا الى الاتراك بصلة قومية او دينية

او ثقافية وبالتالي فقد كان من الارجح ان يؤدي هـذا الى مشكـلات وعقبات •لهذا فقد حضر فى اوائل ايام الحرب ، فى اب ١٩١٤ « بهاء الدين شاكر » ، و « ناجي باي » من رؤساء حزب « الاتحاد » الى ارزروم حيث كان حزب « التاشناك » وهو اكبر حزب ثوري ارمني ، قد انهى مؤتمره العام الثامن ، وعرضـا على الحزب المطالب التالية : تشكيل فرق فدائية ارمنية لقتال الروس واشعال الثورة فى قوقاس فى ظهر الجيش الروسي • وقطعا عهدا بان مقابل هذا سيسمح للارمن ، بعد الحرب ، باقامة وطـن مستقل على بعض الاراضي الارمنية المحتلة من قبل الاتراك والروس • وقد حاول حزب التاشناك ان يقنع رؤساء « الاتحاد » بان من مصلحة تركيا ان تبقى على الحياد ولا تخوض غمار الحرب التي لن تعود على تركيا الا بالضرر الجسيم • ولكن اضاف ايضا ان اذا كانت تركيا قد قررت دخول الحرب نهائيا فان الارمن سوف يقومون بجميع التزاماتهم تجاه الدولـة العثمانية على الوجه الاكمل بخدمة الجيش والوطن على السواء • ولكن الحزب لم يرض ان يتحمل مسؤولية الكلام عن الارمن فى قوقاس وقد كان هؤلاء مواطنين تابعين لروسيا • ولم يعجب هذا الكلام رئيسي الاتحاد اللذين غادرا المدينة قائلين ان عدم اشتراك الارمن فى الثورة فى قوقـاس يمكن ان يسبب لهم عواقب وخيمة • وبالفعل فلم يمض وقت طويل حتى عرف الارمن مدى جدية هذا التهديد •••

وقد ارادت الحكومة التركية ان تصبغ الحرب بصبغة دينية فاعلن السلطان « رشاد » الجهاد • وكخليفة للمسلمين جميعا دعا الشعـوب الاسلامية كلها الى الاشتراك فى القتال ضد البلدان المسيحية • وقد خطب شيخ الاسلام فى مسجد القسطنطينية وكرر اقواله فى جميع ارجاء البلاد .الشيوخ الذين كانوا يعدون بحياة الاخرة لجميع المشتركين فى المعركة المقدسة • ولكن المحرض الاكبر كان كتيبا صدر باللغة العربية وكان يشرح التفصيلات الدقيقة المتعلقة بالجهاد وقد وصف هذا الكتيب كيف ان الشعوب الاسلامية فى اسيا وافريقيا كانت تذوق الامرين تحت حكم المستعمرين المسيحيين المغتصبين واعداء الله•وكان الكتيب ،الذي اعد من قبل الالمان يقول:«اعلموا ان دم الكافرين من غير الحلفاء (يريد الالمان والنمساويين) يمكن اهراقه

بدون معاقبة • ليقسم رسميا كل مسلم ، اينما وجد فى هذا العالم بأنه سوف يقتل ثلاثة او اربعة مسيحيين فى محيطه • ان الذي يطيع هذا القانون ينجو بنفسه من بطش يوم الحساب ويرث الاخرة » •

كان الجيش والحكومة سوف يقومان بوظيفتهما واعمالهما ، اما الشعب فكان من المقرر ان يزرع البغض والكراهية ضد الارمن ويقتلهم بعد تشكيله عصابات ارهاب •

وكانت فكرة الجهاد من صنع المانيا التي كانت تعتقد انها بتحريضها التعصب الديني للعالم الاسلامي كانت ستقيم ثلاثماية مليون من المسلمين ضد انكلترا وفرنسا وروسيا وقد فشلت هذه الخطة طبعا لان العرب والشعوب الاحرى فى اسيا وافريقيا لم يلبوا نداء الخليفة • ولكن الكارثة انفجرت على رؤوس الارمن •

فى الواقع كانت القيادة المركزية لحزب الاتحاد والترقي تولي اهتماما كبيرا لقضية الارمن • وقد شكلت لجنة خاصة من الدكتور « ناظم » والدكتور « بهاء الدين شاكر » ووزير التربية « شكري » ، وكانت مهمة هذه اللجنة اعداد خطة افناء العنصر الارمني واساليب تنفيذها • وكان الذى يعد له العدة شيئا يختلف تماما عن مذابح عهد السلطان حميد • وقد كانت ظروف الحرب ملائمة فى هذه المرة لحل القضية الارمنية نهائيا وذلك بازالتها كليا • وقد درست ونوقشت هذه الخطة الجهنمية قبل تنفيذها بصورة دقيقة شاملة • فوضعت امكانيات واساليب تطبيقها كلها فى ادق تفاصيلها • كانت القيادة المركزية لحزب الاتحاد والقيادات جميعها فى المناطق المختلفة سوف تساند الحكومة التي تبنت برنامج الحزب بصورة قاطعة ، وكان الشيوخ سيحرضون الشعب ضد الارمن لاشراكه فى المذبحة والنهب • وكانت الحكومة ستطلق سراح اكثر من عشرة الاف مجرم وسارق من سجونهم بعد تزويدهم بالسلاح الضروري • اما القيادات المحلية لحزب الاتحاد فكان عملها ينحصر فى تنظيم هؤلاء المجرمين فى فرق ارهابية وتوجيههم لقتل ونهب قوافل الارمن التي شردت من ديارها • وللقيام بهذا العمل الضخم كانت الحكومة فى حاجة الى موظفين تستطيع ان تثق بهم فى تنفيذ الاوامر الصادرة اليهم حرفيا • لذا

فقد استبدل كل مسؤول كانت الحكومة ترتاب فى اخلاصه بـــولاة وقائمقامين اشتهروا بعمق كراهيتهم للارمن • كل هذا مع البرقيات العديدة المرسلة من قبل « طلعت » وزير الداخلية آنذاك الى الحكومات المحلية فى المناطق المختلفة ، تقيم الدليل القاطع على ان هذه المذابح كانت جريمـة مدبـرة ، وجزءا من تاريـخ المذهـب التركي الطوراني الشامـل • ومن بين البرقيات العديدة التي فى حوزتنا ، تشرح البرقية التالية المرسلة من وزير الداخلية الى محافظ حلب الشيء الكثير فى هذا النحو : « رغم ان قرارا كان قد اتخذ فى الماضي لابادة العنصر الارمني الذي يسعى منـذ القديم الى تقويض الاسس القوية لدولتنا والذي يعرض امنها للخطـر والازمات ، الا ان الظروف كانت لا تسمح بتطبيق هذا القرار السامي • اما الان فالعقبات كلها قد ازيلت والوقت قد حان لانقاذ الوطن من هذا الشعب الخطير • نشير عليكم ان تتجردوا من كل شعور الرأفة والرحمة امام حالتهم الاليمة • فالمطلوب منكم ان تسعوا الى القضاء عليهم لمحـو الاسم الارمني فى تركيا • وعليكم ان تنتبهوا الى تسليم مسؤولية هـذا العمل الى اشخاص وطنيين نستطيع ان نثق بهم • »

كان هذا مشروع ابادة شعب شاملة لم يسبق لها مثيل فى التاريـخ كله • واذا كانت المسؤولية الكبرى تقع على عاتق الحكومة والاتحاد الا ان الشعب التركي بجميع طبقاته وغزيرته الاجرامية القومية ، كان سوف يشترك عمليا فيه •

الخطوات التمهيدية :

بعد مغادرة « بهاء الدين شاكر » و « ناجي باي » ارز روم اخذت أنباء الاعتداءات على الارمن ترد على البطريركية الارمنية فى القسطنطينية • كان هذا فى اب وايلول من عام ١٩١٤ ، ولم تكن تركيا قد دخلت الحرب بعد • وقد كثرت الشكاوي والاحتجاجات عندما دخلت تركيا الحـرب فى اواخر تشرين الاول • وكان النهب والاستيلاء على الاملاك ، والغارات المسلحة واتهام الارمن باتهامات مثيرة ، كل هذا كان يهدد امن السكان فى ارمينيا الذين كانوا يتنبأون بكارثة رهيبة • وقد ازداد الضغط علـى

الارمن تدريجيا • فمؤونة الفلاحين من دقيق للشتاء صودرت تحت الضرب والتعذيب وسيق الرجال بالآلاف من ديارهم للخدمة كحمالين فى الجيش • وقد نهبت حوانيت ودور الارمن فى المدن • وكان الاتراك يدعون ان هذه الاجراءات تقتضيها الحرب • ولكن الارمن وحدهم فقط كانوا ملزمين بها •

عند اعلان التعبئة العامة فى اب تقدم الشباب الارمن ايضا الى الثكنات • وببلاغ جديد جندت الحكومة التركية جميع الرجال الذين تراوحت اعمارهم بين ١٨ ــ ٥٠ سنة • وقد جند حتى الذين كانوا قد دفعوا البدل او كانوا المعيلين الوحيدين لعائلاتهم • وقد سبق هذا الاجراء انشاء الرقابة فى زمن الحرب • فمنعت المراسلات باللغة الارمنية وقد وضع الحظر على تنقلات الرجال • وهكذا قطع كل اتصال او مراسلة بين القسطنطينية ومناطقها • رغم هذا كانت اخبار اضطهاد الارمن وتشريدهم من قراهم تتسرب الى البطريركية الارمنية فى العاصمة حيث كان وجهاء الارمن والمسؤولون والبطريرك نفسه يضاعفون نداءاتهم الى رئيس الوزراء انذاك سعيد حليم باشا • ووزير الداخلية طلعت ، ووزير الحربية انور ، وغيرهم من اعضاء الحكومة التركية والى سفراء الدول الصديقة لتركيا وبخاصة الى السفارة الالمانية • وكان هؤلاء يستنكرون ما يسمعون او فى احسن الاحوال كانوا يقطعون الوعود بالتهدئة والسلام • ولكن الوضع لم يتغير ولم تقم الحكومة باية خطوة فى هذا الاتجاه • كانت الهيئات الرسمية والاحزاب السياسية الارمنية تحاول تهدئة الارمن لقطع الطريق امام الاحداث الخطيرة وتنصحهم بالروية وتجاهل المظالم • وقد تقدمت البطريركية لمساعدة الجيش وارادت فتح المستشفيات وتنظيم اعمال اسعاف المرضى • ولكن كل هذا لم يكن ليفيد الارمن بشيء • فلم يكن يعلم هؤلاء ماذا يجري فى المناطق بسبب قطع كل اتصال مع الخارج • وعندما علموا بالامر كان الوقت قد فات وجاء دورهم لدفع دينهم لجلاديهم •

وفى الواقع اعتقلت قوات الشرطة فى ليلة الرابع والعشرين من نيسان فى القسطنطينية حوالي ٢٢٥ وجيها من وجهاء الارمن ، من الادباء

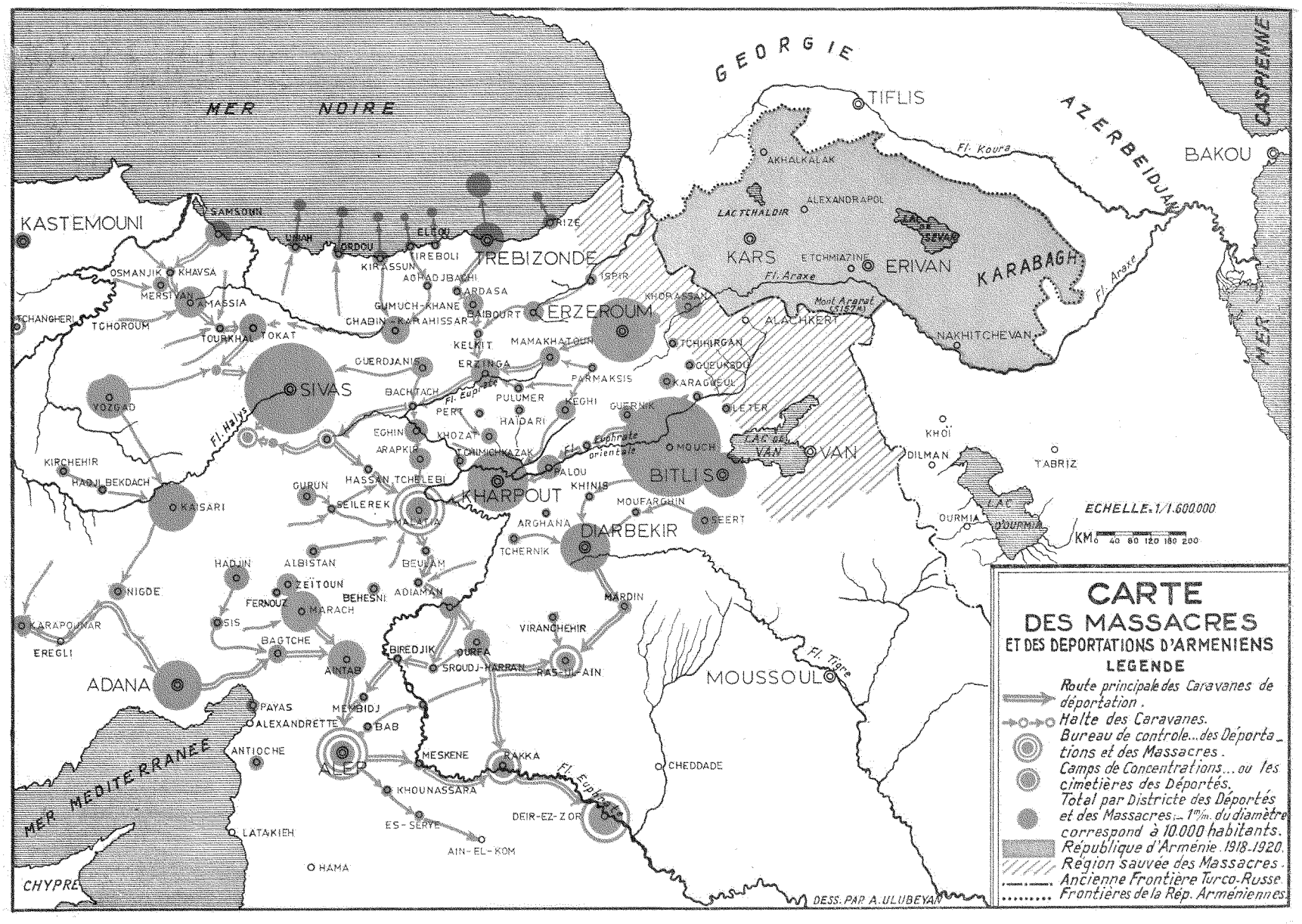
MER NOIRE
GEORGIE
TIFLIS
AZERBEIDJAN
CASPIENNE
BAKOU
Fl. Koura
AKHALKALAK
ALEXANDRAPOL
LAC TCHALDIR
LAC DE SEVAN
KARS
ETCHMIAZINE
ERIVAN
KARABAGH
Fl. Araxe
Mont Ararat (5157 m)
ALACHKERT
NAKHITCHEVAN
MER
KASTEMOUNI
SAMSOUN
UNIAH
ORDOU
EREGLI
RIZE
TREBIZONDE
OSMANJIK
KHAVSA
MERSIVAN
AMASSIA
TCHANGHERI
TCHOROUM
TOURKHAL
TOKAT
KIRASSUN
TIREBOLI
AGHADJBACHI
ISPIR
ARDASA
GUMUCH-KHANE
GHABIN-KARAHISSAR
BAIBOURT
ERZEROUM
KHORASSAN
KELKIT
MAMAKHATOUN
TCHIHIRGAN
GUERDJANIS
ERZINGA
GUEUKSOU
FARMAKSIS
KARAGUEUL
SIVAS
YOZGAD
BACHTACH
Fl. Euphrate
PULUMER
KEGHI
GUERNIK
ILETER
PERT
HAIDARI
Fl. Halys
EGHIN
KHOZAT
ARAPKIR
TCHMICHKAZAK
Fl. Euphrate orientale
MOUCH
LAC DE VAN
VAN
KHOÏ
DILMAN
TABRIZ
KIRCHEHIR
HADJI BEKDACH
KAISARI
GURUN
HASSAN TCHELEBI
KHARPOUT
BITLIS
KHINIS
MOUFARGHIN
SEILEREK
MALATIA
ARGHANA
SEERT
DIARBEKIR
LAC D'OURMIA
OURMIA
TCHERNIK
HADJIN
ALBISTAN
BEURAM
ZEÏTOUN
NIGDE
FERNOUZ
BEHESNI
ADIAMAN
MARDIN
MARACH
KARAPOUNAR
SIS
VIRANCHEHIR
EREGLI
BAGTCHE
BIREDJIK
OURFA
AINTAB
SROUDJ-HARRAN
RAS-UL-AIN
ADANA
MOUSSOUL
Fl. Tigre
PAYAS
ALEXANDRETTE
MEMBIDJ
BAB
ANTIOCHE
ALEP
MESKENE
RAKKA
Fl. Euphrate
CHEDDADE
KHOUNASSARA
DEIR-EZ-ZOR
MER MEDITERRANEE
LATAKIEH
ES-SEYE
AIN-EL-KOM
HAMA
CHYPRE
ECHELLE: 1/1.600000
KM 0 40 80 120 160 200
CARTE
DES MASSACRES
ET DES DEPORTATIONS D'ARMENIENS
LEGENDE
Route principale des Caravanes de déportation.
Halte des Caravanes.
Bureau de controle... des Déportations et des Massacres.
Camps de Concentrations... ou les cimetières des Déportés.
Total par Districte des Déportés et des Massacres: 1 m/m. du diamètre correspond à 10.000 habitants.
République d'Arménie. 1918-1920.
Région sauvée des Massacres.
Ancienne Frontière Turco-Russe.
Frontières de la Rép. Arméniennes
DESS. PAR A. ULUBEYAN

والشخصيات المرموقة والمثقفين والعلماء والشعراء العظام كتانييل واروجان وسياماتنو ، وكريكور زوهراب والاب كوميداس وغيرهم • كان هذا نخبةالشعب الارمني وطليعته التي باعدامها كانت الحكومة التركية ستشل حركة او مقاومة بقية الارمن • وقد بعثت الحكومة بهؤلاء الى مجاهل اناضول حيث قتل القسم الكبير منهم بيد الارهابيين • وردا على احتجاج البطريركية الارمنية على هذه الفظائع اعلن رئيس الوزراء ووزير الداخلية بان بعد عثور الحكومة على كميات كبيرة من الاسلحة لدى الارمن في « وان » وبعض المناطق الارمنية الاخرى صدر الامر بتلك الاعتقالات التي ليست الا اجراء ضروريا لحفظ امن الدولة • ولكن الاضطهاد استمر بكل عنف وشدة• وفى التاسع والعشرين من نيسان طلب من الارمن فى العاصمة تسليم الاسلحة التي بحوزتهم • وانصاع الارمن لهذا الامر ولكن هذا لم يكن يكفي لاتهام الارمن بالثورة والتمرد فتجددالتفتيش والارهاب والاعتقالات •

تقتيل ، تشريد ، وتقتيل من جديد :

كانت الحكومة التركية قد بدأت تنفيذ برنامجها الاجرامي منذ كانون الثاني من عام ١٩١٥ حينما أخذ الجيش النظامي والكتائب الحميدية والارهابيون يقتلون سكان المناطق الارمنية على الحدود فى هجومهم على الجبهة القوقاسية •تابع هذا العمل تجريد الجنود الارمن من السلاح رغم ان وزير الحربية « انور باشا » كان قد اعلن من قبل : « ان الجنود الارمن فى الجيش العثماني يقومون بواجباتهم على اكمل وجه • هذا شيء استطيع ان اشهد به لانني رأيته شخصيا » • ولكن لم يمض وقت طويل حتى جرد الجنود الارمن من السلاح كما ذكرنا ، وهذا بامر انور باشا نفسه ، كان عليهم العمل كحمالين او فى « طابور العملة » فى انشاء الطرق ومد الخطوط الحديدية • ولم يدم هذا طويلا ايضا • وقد انكشف بعده ان هؤلاء كانوا يحاصرون فى الثكنات من قبل الجنود الاتراك ويعدمون رميا بالرصاص • وفى اماكن اخرى كانوا ينقلون مقيدين فى فرق كبيرة الى مناطق نائية ويبادون• وغالبا ، ما كان الجنود الارمن العزل يحفرون بنفسهم الحفر التي كانت

ستكون مقابر لهم .

وقد تركز اهتمام الحكومة العثمانية على بعض مناطق ارمنية هامة كزيتون فى كيليكيا حيث لم يسفر التجنيد وجمع السلاح والتفتيش والمصادرة والنهب والقتل عن اثارة هذا الشعب الجبلي الذي كان يصبر على كل هذا عملا بنصائح السلطات الدينية . وقد استقبل اهالي زيتون بالاعلام البيضاء لواء كبيرا من الجيش العثماني جاء بحجة البحث عن الفارين من الخدمة وعرضوا عليه استعدادهم لمساعدته ، ولكن الاتراك قبضوا على ٣٠٠ من الوجهاء ونفوهم الى اماكن مجهولة . هكذا بدأ تشريد سكان زيتون الارمن فى الثامن من نيسان . وقد سيق ما يقرب من ٨٠٠ منهم تحت القتل والتعذيب نحو غارابونار فى ولاية قونيا وسيق القسم الثاني الذي كان يقرب الستة عشر الفا الى صحراء دير الزور حيث وصلت اليها الانقاض المتبقية منهم فقط .

وقد سلكت الحكومة العثمانية سياسة جديدة فى المناطق الشرقية . وبخاصة فى «وان» و«بتليس» . ولم يكن تشريد اهالي «واسبوراكان» و«موش» و«صاصون» عملا سهلا . وقد وقعت الاصطدامات فى بعض المناطق الريفية فاقترحت السلطات المحلية للمسؤولين الارمن تأليف لجان مختلطة لزيارة المناطق وتهدئتها . وقد ذهب هؤلاء ضحية هذه الحيلة الجديدة ، اذ انهم قتلوا فى الطريق على يد الاتراك والاكراد وبأمر الحكومة . ولقد لاقى النائب الارمني فى «وان» « وارامیان» المصير نفسه . وكانت المذابح قد بدأت عندما كان جيش «جودت باشا» العائد من جهة القوقاس والحائز على امدادات عسكرية من ارزروم يحاصر القطاع الارمني فى وان الذي كان قد قام باستعدادات اولية للدفاع عن نفسه بعد ان اصبحت واضحة سياسة الحكومة الرامية الى تقتيل الارمن . وفى العشرين من نيسان هاجم الاتراك على حي الارمن بعد ان قصفوه بمدافعهم ولكنهم لاقوا مقاومة شديدة . وقد دامت هذه المقاومة البطولية شهرا فاضطر الجيش التركي والسكان الاتراك الى مغادرة المدينة ، وبعد يومين دخلت القوات الروسية مع الفرق الارمنية الفدائية الى وان .

كانت الحكومة التركية سوف تستغل فى المستقبل حوادث « وان »

مدعية بأنها كانت محاولة تمرد أرمني عام تهدف الى طعن الجيش التركي من الخلف • ان وصف المقاومة الارمنية فى « وان » كما يشهده مبشرون ألمان وامريكيون ، يظهر بأن الارمن بعد ان رأوا ماذا كان يجري فى المناطق المجاورة لجأوا الى الدفاع عن النفس فقط • فكانت المذابح على الجبهة وفى مناطق الحدود قد جرت من قبل ، وكذلك تشريد الارمن من زيتون الذي قام به الاتراك قد جرى بمدة طويلة قبل الثورة الارمنية فى وان التي كما يدعون كانت السبب فى تشريد الارمن وتقتيلهم •

وكان وادي موش فى ولاية بتليس ، مسرحا لحوادث دامية اكثر بكثير من حوادث وان وزيتون • وقد سيق الرجال الى الجبهة للعمل كحمالين او فى « طابور العملة » ، وكان لاكراد المنطقة مشاركة عملية اكثر فى النهب والقتل • ولم تسفر الشكاوى عن نتيجة بل بالعكس شنق الاتراك بعض الاشخاص فى موش • وقد توقف الاضطهاد برهة عندما اخذت الجيوش الروسية تقترب

من قرى الوادي فى اواخر ايار • ولكن الجيش الروسي لم يتمكن من التقدم اكثر بل تراجع مفرغا حتى المناطق التي احتلها سابقا • وكانت نتيجة هذا التقهقر ان اضطر الارمن الذين كانوا قد حصلوا على الاستقلال الداخلي لمدة اربعين يوما فى وان الى الانسحاب مع الجيش الروسي ، ملاحقين من قبل العدو • واجتاز ما يقرب من مائة وثمانين الف من الارمن الحدود وتمركزوا كلاجئين فى مناطق يريفان واتشميازين • بعد هذا حاصر الجيش التركي أحياء مرسين الارمنية وقصفها بالمدافع عدة ايام • وقد قاوم الارمن مقاومة يائسة فى احيائهم المدمرة ثم لاقوا حتفهم فى الحرائق وتحت القنابل • وقد جمع الاتراك الجرحى والباقين على قيد الحياة وألقوا بهم احياء فى النار•

وقد تعرضت قرى مرسين الارمنية التي كانت تعد بالمئات الى مصير المدينة نفسه • وقد شاهد الذين استطاعوا اللجوء الى الجبال المنظر الرهيب الذي كان يبسطه امامهم عدة ايام واديهم الخصيب المشتعل الآن بين الحرائق وقد جاء الدور بعد هذا الى منطقة صاصون الجبلية التي لم يستطع الاستبداد التركي اخضاعها ابدا • ومنيت محاولته الجديدة بالفشل ايضا • وقد رفض اهل صاصون تسليم اسلحتهم ، وتزويد الجيش بالعمال والحمالين ، بعد ان

سمعوا بان شبابهم فى الجيش التركي قد ابيدوا والحمالين العاملين فيه لن يعودوا ابدا • وقد جمعت الحكومة التركية بعد مذابح مرسين والوادي ما يقرب من ثلاثين ألفا من المقاتلين من جنود الجيش وارهابيي العشائر الكردية المجاورة حول صاصون والجبال المحيطة به • وقد استطاع الصاصونيون مقاومة هذا العدد الضخم من المهاجمين بأسلحتهم البدائية البسيطة وطلقاتهم المعدودة ولكنهم اضطروا اخيرا الى الانسحاب الى اعالي الجبال • وقد مر هذا البلد الجبلي الفقير الذي كان يعد عشرين الفا من السكان بظروف قاسية • وكان قد انضم اليهم ثلاثون الفا من الباقين على قيد الحياة من سكان المناطق السهلية ومعظمهم من النساء والشيوخ والاطفال • وقد نفذت المؤونة والذخيرة لدى الكثير من المقاتلين الذين اضطروا الى مواجهة العدو المتقدم بالسلاح الابيض • وكانت النساء يشتركن ايضا فى القتال وفى معظم الاحوال كن يلقين بانفسهن من أعلى الصخور لكي لا يقعن فى يد الاعداء • وفى الخامس من آب احتل العدو اخر المرتفعات وكانت جبال صاصون ملطخة بالدم الاحمر الغزير •

كانت الحكومة التركية تقوم بهذه المذابح الرهيبة فى ايام الحرب الاشد عنفا • وفى الوقت نفسه كانت تحاول تنويم الرأي العام العالمي باعلاناتها الخادعة ورقابتها الشديدة على المراسلات والتنقلات • ولكن لم يمض وقت طويل حتى انكشفت الاسرار بكل حقائقها المريرة • وفى الرابع والعشرين من آب عام ١٩١٥ وجهت روسيا وانكلترا وفرنسا انذارا مشتركا الى تركيا بوقف المذابح حالا والا فأفراد الحكومة التركية كلهم كانوا سوف يقدمون الى المحاكم بعد الحرب • وقد ردت تركيا على هذه الانذارات والانتقادات منكرة كل المذابح واعمال التشريد ، واعلنت ان لا اساس لها من الصحة وأنها اخترعت من قبل الحلفاء • وكان الاعلان التركي يقول : « ان الارمن فى ارزروم ووان ، وأغن ، وصاصون ، وبتليس ، وموش ، وكيلكيا لم يتعرضوا الى أي عمل غير قانوني من قبل السلطات الامبراطورية ، لانهم لم يقوموا بأي عمل يهدد الامن العام ويعكره » • وكانت أقوال الاتهام الشخصي هذه تعلن فى نفس الايام التي تلقى الارمن فيها اوامر الترحيل والنفي •

كانت غاية الاتراك واضحة كل الوضوح • وتظهر هذه الغاية بكل

حقيقتها وصراحتها فى الجواب التالي للمسؤول الاول عن مذابح الارمن ، وزير الداخلية طلعت ، الموجه الى سفير الولايات المتحدة فى القسطنطينية « مور غنتاد » الذي كان يسعى بوساطته الى وقف التشريد والمذابح • وقد قال طلعت لهذا السفير مفتخرا : « لقد قمت فى مدة ثلاثة اشهر اكثر بكثير مما قام به السلطان عبد الحميد فى مدة ثلاثين عاما ، لحل القضية الارمنية » •

بعد الحوادث التي ذكرناها اعلاه ، لجأت الحكومة التركية الى تشريد الارمن الساكنين فى تركيا نفسها • وقد جرى هذا فى حزيران وتموز وآب من العام نفسه • وبينما كانت سياسة الحكومة ابـادة الشعب الارمني فى مناطق وان وبتليس بواسطة المذابح مباشرة ، كانت سياستها فى بقية المناطق للغرض نفسه تقوم على مراحل متتالية والابادة البطيئة ، وكانت المقاومة المنظمة من قبل الارمن كفيلة بفشل هذه السياسة ، لذلك لجأت الحكومة التركية و«الاتحاد» ، منذ قيام الحرب ، الى اتخاذ تدابير أمن يجعل من المستحيل قيام الارمن حتى بثورة منفصلة صغيرة • ولم يبق فى المدن والقرى الارمنية بعد اعلان التعبئة العامة غير الشيوخ والنساء والاطفال • وقد طلب منهم تسليم جميع انواع الاسلحة الى الحكومة • وقد لبى الارمن هذا الطلب ، ولكن الحكومة سلمت هذه الاسلحة المصادرة نفسها الى الاتراك والاكراد •

وقد استعملت الحكومة التركية جميع اساليب القسوة والشدة للحصول على المزيد من الاسلحة من الارمن ، الذين كانوا يضطرون فى كثير مـن الاحيان الى شراء الاسلحة من جيرانهم الاكراد والاتـــراك وتسليمها الى الحكومة • وكان الموظف فى الحكومة يسجل وجود هذه الاسلحة لـدى الارمن كدليل على الاستعدادات الارمنية للقيام بثورة شاملة فى تركيا •

وقد نفذت الخطوة التالية فى المدة الواقعة بين الحادي والعشرين من نيسان والتاسع عشر من ايار • فبدأ اعتقال الشخصيات الارمنية فى المدن بالمئات • وكان هؤلاء يساقون الى السجون بدون محاكمة وبعد تعذيبهم كانوا ينقلون الى المناطق النائية حيث يبادون • وقد اعتقل فى أرزروم خمسمائة وفى سيباسطية ثمانمائة • وفى قيساريا مئتان ، وفى المدن الصغيرة اعتقل من عشرين الى مئة مسؤول ارمني • وكانت هذه الاعتقالات ترمي الى تجريد المراكز الارمنية من هيئاتها القيادية وطليعتها المثقفة ، بحيث يكون من السهل

التصرف بالشعب العزل • وقد منع السفر لا بين المدن فحسب ، بل حتى بين القرى • وقد منعت ايضا المراسلة بين هذه المدن والقرى فأصبح الارمن فى كل مكان لا علم لهم بما كان يجري من حولهم فى المناطق الاخرى •

فى حزيران بدأ الترحيل العملي وكان المنادون او الدرك يصيحون فى الشوارع قبل اسبوع او اسبوعين بأن على كل الرجال الارمن الذين تتراوح اعمارهم بين الخمسة عشر والسبعين المثول امام مقر الحكومة • وفى اليوم المحدد كان يلقى الحشد المجتمع فى السجون لترحيله بعد ايام قلائل • كان يقال لهم بان الرحلة سوف تدوم طويلا ولكن كان لا يعطى لهم الوقت للقيام ببعض الاستعدادات • وقد اتبع الاتراك اسلوبا آخر فى مناطق البحر الاسود كدرابيزون وكيراسون وريزه وأوردو وغيرها • وقد حمل الرجال بالمئات والالاف على السفن وعندما وصلت الى عرض البحر القوا فى المياه العميقة •

بعد اسبوع جاء دور النساء والاطفال وقد قيل لهم بانهم سوف ينقلون الى اماكن آمنة بسبب الحرب او الى رجالهم فى الجبهة • وقد سمح للبنات والنساء الشابات بالبقاء فى بيوتهن شريطة ان يسلمن ويتزوجن من الاتراك بدون تأخير ، وفى هذه الحالة كان عليهن ان يفترقن من اولادهن الذين كانوا يجمعون فى دور حكومية خاصة للايتام لتلقي التربية التركية فيها • ولكن هذا لم يحدث فى كل مكان • وقد منعت الحكومة فى معظم المدن تغيير الديانة وجعل الترحيل عاما للكل •

كانت كل قافلة عادة تتشكل من مئتين الى اربعة آلاف من الناس ، وكانت ترافق كل قافلة فرقة من الدرك • وكانت الحكومة تدعي بأن هؤلاء الدرك لحماية القافلة من اللصوص والمجرمين فى الطرق • كانت القوافل المؤلفة من الرجال لا تبتعد كثيرا ، اذ كان الفرسان الارهابيون المسلحون يحاصرونها بعد قليل وكان الدرك « الحراس » ينسحبون على اثر ظهور هؤلاء الفرسان الذين نظمتهم اللجان المحلية لحزب الاتحاد . والذين كانوا يؤلفون حلقة مستديرة حول القافلة ويطلقون النار على الرجال العزل والمقيدين فى اغلب الاحيان ، ولا يقف اطلاق النار الا بعد افناء القافلة برمتها • وكان يلي هذه الخطوة النهب الذي كان يشترك فيه السكان الاتراك فى المناطق

المجـــاورة . وحتى الجثث كانت تنهب ، وكانوا ايضا يبقرون بطونها بأمل الحصول على الذهب • وبعد النهب الكامل كانت الجثث تلقى فى الانهار او تودع حفرا كبيرة كانت تغلق بالتراب بعد امتلائها • اما فى قوافل النساء فكان القتل اقل والنهب اكثر • وفى هذه الاحوال كان الاتراك فى المدن احرارا فى اختيار النساء او البنات اللواتي اعجبوا بهن • وكانت اسعارهن رخيصة جدا • وفى معظم الاحوال كن يقدمن مجانا وكانت الحسان من بينهن يتعرضن للاغتصاب فى كل محطة ، وكان يشترك فى هذا العمل الدرك « الحراس » المرافقون للقافلة •

وكانت القوافل على طول الطريق يقل عددها شيئا فشيئا وكانت الرحلة تدوم أشهرا بحيث لم يتمكن اصلب الناس واقواهم احتمالها الا بصعوبـــة كبيرة • أما جماهير النساء والاطفال والشيوخ المرضى فكانت تحت شمس الصيف المحرقة ، بلا غذاء او استراحة معرضة للفناء المحقق • كان الوضع عسيرا جدا بالنسبة للنساء الحوامل اللواتي اصبحت الرحلة طويلة لعدد قليل جدا منهن • وقد حدث ان ولدت بعض النساء ولكن رجال الدرك كانوا لا يقبلون بوقف سير القافلة • فكانوا يلقون بالمواليد الجدد بعيدا عن القافلة أو كانوا يحطمونهم على الاحجار • انه لمن الصعب جدا فى الواقع تصوير حالة تلك الكائنات التي استحالت هياكل متحركة نتيجة جـــوع وعطش الايـام والاسابيع • كانت تلك القوافل جماعات اشباح متنقلة تسير وتسير الى المجهول • وكان الكثير منهم قد اصيب بالجنون قبل بلوغ نهاية الرحلة ، وقد فقد آخرون حاسة بصرهم او سمعهم ، وحتى غريزتهم للاكل ••••

مقابر فى الصحراء

كانت قوافل اللاجئين من كل أنحاء تركيا تتجه كلها الى بوادي سورية والعراق التي وصفتها الحكومة التركية « بمناطق مؤقتة وآمنة لاسكـان الارمن » • فى الواقع كانت تركيا لا تعتبر هذه الاماكن مناطق حربية ، ومن القسطنطينية حتى البحر الاسود اناضول وكيليكيا وحتى المناطـــق البعيدة من الجبهة ذات سكان ارمن قليلين جدا ، كانت قد تعرضت لامـــر

الترحيل • كانت الاحتياطات ، كما ظهر من النتائج ، قد اخذت لكي يصل أقل عدد ممكن من الارمن الى المناطق المقررة • وقد وصلت القوافل جميعها مكسرة الى حلب • فى أحسن الاحوال وصل الى نهاية الرحلة نصفها ولكن فى الغالب كان عدد القتلى فى الطريق رهيبا • وقد وصل الى حلب ٢١٣ شخصا من القافلة التي خرجت من « خاربرت » وهي ٥٠٠٠ شخصا • ووصلت قافلة ٢٥٠٠ شخصا من خاربرت ايضا الى حلب بـ ٦٠٠ شخص فقط • اما القافلة المؤلفة من لاجئي سيباسديا وخاربرت ويبلغ عددها ١٨٠٠٠ نسمة وقد وصل منها الى حلب ١٥٠ من الباقين على قيد الحياة فقط •

ولم تكن حلب مدينة النجاة بالنسبة لهؤلاء اللاجئين ، بل كانت مركزا عاما حيث تتجمع القوافل الآتية من أرمينيا وأناضول وكيلكيا وترسل منها الى المناطق الصحراوية المقررة للمذبحة النهائية • فى هذه المناطق جرى الفصل الاخير من مأساة الشعب الارمني • كانت بقايا المشردين البؤساء تشبه الانقاض المحطمة • وأخذ الشتاء المقبل والتيفوس يحصدان ارواح مئات وآلاف من الجماعات المحتشدة فى ديرالزور ورقة · ورأس العين واصلاحية ومسكنة • وقد وجدت هذه الجماعات الملاحقة من قبل العشائر الرحل والموظفين الاتراك الوحوش ، حماية او رأفة لدى الشعب العربي النبيل الذي كان بدوره يتعرض للاضطهاد من الحكومة التركية • وقد حاول الموظفون العرب قدر استطاعتهم تخفيف الاوامر الصادرة اليهم من القسطنطينية ، وقد وجد أشخاص رفضوا الانصياع لتلك الاوامر مطلقا • فحاكم دير الزور العربي مثلا « علي سواد باي » ، كان قد وضع تحت حمايته آلاف اللاجئين فى منطقته واوجد لهم فرصة العمل وكسب رزقهم وعندما صدرت اليه الاوامر بترحيلهم الى داخل الصحراء ابرق هذا الرجل العظيم الى حكام القسطنطينية ما يلي : « ان وسائل النقل غير كافية لترحيل الجماعات • اما اذا كان هدفكم قتلها وابادتها فانني لا استطيع القيام او الامر به » • وقد عزل علي سواد باي على اثر رفضه هذا من قبل طلعت وأبدل بـ«زكي باي» المشهور بعطشه للدماء والذي نفذ مذبحة دير الزور الرهيبة •

وقد دقت ساعة موت اللاجئين فى مركز رأس العين عندما زارها « جودت باي » الملقب بـ « نعال الاشكيرد » (وقد سمي هكذا لانه قام بنعل أرجل

الارمن) فى شباط ١٩١٦ • وكان قد عين واليا على أضنه • وقد قام بادخال تغييرات جذرية بين الموظفين • وبما ان العشائر العربية كانت ترفض عرضه للاشتراك فى مذابح الارمن فقد اتى من المناطق المجاورة بالاكراد وغيرهم ، الذين استطاعوا ان يرحلوا من أواخر اذار حتى حزيران خمسين الفا من الارمن وقد أبيدوا جميعا فى طريقهم الى « شداده » فى فرق منفردة •

فى الوقت نفسه بدأت الحكومة التركية بجر الارمن فى حلب وفى المناطق السورية الاخرى والبالغ عددهم نصف المليون الى مسكنة ليصير ترحيلهم من هناك الى دير الزور • وكان فى تموز ١٩١٦ اكثر من ٢٠٠٠٠٠ من الارمن قد تمركزوا حول حلب ، وقد بعث بهم زكي باي نحو الموصل ولكن قبل الوصول الى شداده لم يكن هناك حي واحد فالتعب فى الصحراء وعدم وجود ما يؤكل فيها مطلقا كانا قد ابادا القسم الاعظم من هذه القافلة الكبيرة • أما القسم الباقي فقد طهر من قبل العشائر الرحل والاكراد • فى الاشهر نفسها والقادمة جرت مذابح رهيبة مماثلة فى الاماكن المختلفة من الصحراء التي غدت المقبرة الكبيرة لشعب بائس مغدور •

بدون اعتبار الخسائر المادية والاقتصادية والحضارية والثقافية فقد خسر الشعب الارمني خلال كارثة عامي ١٩١٥ — ١٩١٦ اكثر من مليون من الارواح البشرية استنادا الى احصاءات الانساني الالماني ليبسيوس بلغ عدد الشهداء نتيجة الترحيل والابادة مليونا • وقد بقي ٢٠٠٠٠٠ شخصاً في ديارهم ، و ٢٠٠٠٠ اخر ظلوا احياء ، اما عدد الذين غيروا ديانتهم او اخذوا من الاتراك فقد بلغ ٢٠٠٠٠٠

فى الواقع وقد شرد من ديارهم باستثناء الارمن فى تركيا الاوروبية والقسطنطينية اكثر من مليونين من الارمن المتشردين فى مختلف ارجاء تركيا العثمانية السابقة • ولجأ الارمن فى بعض المناطق كولاية وان ، وموش وصاصون وشابين كاراهيسار واورفا وجبل موسى ، الى الدفاع عن انفسهم• وقد عرفوا الاهداف الاجرامية التي تسعى الى تحقيقها الحكومة التركية عندما رأوا ما حل باشقائهم فى المناطق الاخرى فأرادوا ان لا يخسروا أرواحهم رخيصة • وقد نجا من هؤلاء معظم سكان ولاية وان وجبل موسى • اما الباقون فقد تعرضوا لمذابح اكثر عنفا لانهم حاولوا ان يقاوموا فرفعوا

السلاح • اذن فالذين نجوا من الموت المحقق هم أرمن استانبول وضواحيها فقط والبالغ عددهم ٢٠٠٠٠٠ ، واللاجئون الى قوقاس من ولاية وان ومناطقها المجاورة والبالغ عددهم ٢٥٠٠٠٠٠ فيكون مجموع الباقين على قيد الحياة ٤٥٠٠٠٠٠ من الاشخاص، اما العدد الباقي وهو ١٦٠٠٠٠٠٠ ارمني فقد جر الى المسلخ بعيدا عن أوطانه • ومن الطبيعي ان تكون معرفة العدد الصحيح للذين نجوا من المذابح صعبة ، ولعل مقارنة العدد الكلي للارمن قبل الحرب وبعدها تعطي صورة اوضح للوضع آنذاك •

فالاحصاءات والتقديرات فى سنة ١٩١٤ تعطي الارقام التالية :

فى الولايات الارمنية ومناطق تركيا العثمانية الاخرى	٢٠٢٦٠٠٠
فى ارمينيا القوقاسية ومناطق روسيا الاخرى	٢٠٥٤٠٠٠
فى الدول الاخرى	٣٩٠٠٠٠
المجموع :	٤٤٧٠٠٠٠

اما الاحصاءات والتقديرات فى سنة ١٩٢٦ فتظهر بأن عدد الارمن فى العالم هو ٢٩٠٠٠٠٠٠ هذا يعني انه لا يزال هناك نقصا ١٦٠٠٠٠٠ شخصا بعد المذابح بعشر سنوات ، يمكن الفرض بان قسما من هذا العدد ٤٠٠٠٠٠ شخصا فى اكثر الاحوال ، قد قتل فى الجبهات المختلفة للحرب العالمية الاولى وفى ايام قيام الجمهورية الارمنية ونشأة ارمينيا السوفياتية من بعدها ، ونتيجة الامراض السارية التي انتشرت آنذاك • يتبع من هذا ان عدد الذين استشهدوا فى مذابح ١٩١٥ — ١٩١٦ لا يزال ١٢٠٠٠٠٠ ، ان هذا العدد لا يمكن ان يعتبر مبالغا فيه بل بالعكس فهو اقل من الصحيح اذ لا يعتبر هذا العدد زيادة الفائدة المترتبة على نمو المفقودين فى مدة ١٢ سنة (١٩١٤—١٩٢٦)

هذا هو تاريخ الجريمة الكبرى التي وقعت ضد الشعب الارمني الذي يبكي الان الذكرى الخمسين الحمراء لملايين من شهداء تدين لهم الانسانية والعدالة الشيء الكثير •

Notes Bibliogarphiques

ARAM ANDONIAN — Documents Officiels concernant les Massacres Arméniens, Paris 1920.
The Memoirs of Naîm Bey — London 1920.

J. V. BRICE — The Treatment of the Armenians in the Ottoman Empire — London 1916.
Le Traitement des Arméniens dans l'Empire Ottoman (1915-1916) Laval.

R. DONIKIAN, J. NAZARIAN, V. SOLAKIAN — Le Deuil National Arménien. Paris 1964.

FRIDTJOF NANSEN — Armenia and the Near East. New York 1928.

H. A. GIBBONS — The Blackest page of Modern History. New York 1916. La page la plus noire de l'Histoire Moderne des derniers Massacres d'Arménie. Paris 1917.

JOHANNES LEPSIUS — Le Rapport Secret sur les Massacres d'Arménie. Paris 1919.

JOHANNES LEPSIUS — Deutschland Und Armenian 1914-1918, Sammlung Diplomatischer Aktenstücke. Potsdam 1919.

HENRI MORGENTHAU — Mémoires de l'Ambassadeur Morgenthau. Paris 1919.

A. — J. TOYNBEE — Armenian Atrocities. The Murder of a Nation. London. Les Massacres Arméniens. Lausanne, Paris 1916.

ابادة العنصر الارمني عام ١٩١٥ والقانون الدولي

على الرغم من ان القانـون الدولي هو بصورة اولية مجموعـة من القواعد المنظمة لسلوك الدول مع بعضها ، الا انه يوجد عرف فى الازمنـة المعاصرة بأن المجتمع الدولي قد ابدى اهتماما متزايدا لحمايـة الفرد من العمل التعسفي الذي تقوم به دولته ضده .

كانت النظرة التقليدية تقول بان القانون الدولي لا يختص بحماية الافراد الا عندما يقيمون خارج بلادهم وعندما ترغب دولتهم الام بدعم مطلبهم وبهذه الطريقة كان ينتقل النزاع الى الدول . ومع ذلك وحتى فى العصور القديمة كان المجتمع الدولي يعتبر بعض الاعمال خطرة لدرجة ان اصبح عقابها يشكل اهتماما دوليا . وهكذا نرى بان القرصنة كانت دائما تعتبر جريمة نكـراء حتى ان كل فرد من المجتمع الدولي كان يحق له القبض على القرصان وايقاع العقاب به . ذلك لان القرصنة كانت تعتبر جريمة ضد الانسانية .

مرة ثانية نرى ان مواثيق لاهاي « والمداخلات الانسانية » من جـانب الدول الأوروبية بمنـاسبة المجـازر المختلفة التي جرت فى الامبراطوريـة العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، نرى انها تشير الى قاعدة عرف متطورة ناشئة عن عرف الدولة وهي ان بعض الاخطاء التي ترتكبها الدولة ضد رعاياها كانت لها طبيعة شنيعة حتى ان المجتمع الدولي كان ينظر اليها بانها جرائم ضد الانسانية ويفرض عقوبة ضد الدولة المسؤولة عن هذه الاعمال او ضد الافراد الذين ارتكبوا مثل هذه الاخطاء .

جريا على هذا العرف فى القانون الدولي اصدر الحلفاء اثناء الحرب العالمية الاولى عندما كان الاتراك يرتكبون مجازرهم ضد الارمن ، اصدروا تصريحا انحوا به باللائمة على موظفي الحكومة التركية الذين دبروا هـذه المجازر ونفذوها وصرحوا ، بانهم سوف يحاكمون ويعاقبون على اعمالهم هذه عند نهاية الحرب .

ان افضل دليل يثبت وجود هذا العرف فى القانون الدولي الذي يحدد الابادة العنصرية بانها جريمة ضد الانسانية ويعين لها عقوبة ، هو الحكم الذي صدر عن محكمة نورمبورغ عام ١٩٤٦ بشأن مجرمي الحرب الالمان الكبار • لقد حددت المادة ٦ (جـ) من ميثاق آب ١٩٤٥ ، الذي وقعته قوى الحلفاء والذي عدله بروتوكول ٦|١٠|١٩٤٥ ، حددت الجرائم ضد الانسانية بانها المذابح والافناء والاستعباد والابعاد وخلاف ذلك من الاعمال الغير انسانية التي ترتكب ضد الشعب المدني قبل الحرب او اثنائه ، او الاضطهاد السياسي والعنصري والديني • ان احدى النقاط الرئيسية التي ارتكز اليها الدفاع الالماني كانت ان ميثاق ١٩٤٥ وضع قانونا جديدا عن طريق تحديد الجرائم ضد الانسانية وتطبيق هذا القانون على الافعال التي ارتكبت قبل ١٩٤٥ بحيث تعطيه مفعولا رجعيا • ان اعطاء أي قانون مفعول رجعي يخالف المبدأ الاساسي للعدالة الطبيعية • وعلى هذا اجابت المحكمة بما يلي :

« لا يعتبر الميثاق ممارسة تعسفية للسلطة من جانب الامم الظافرة ، ولكن فى نظر المحكمة • • • ان ذلك يشكل تعبيرا للقانون الدولي الموجود منذ انشائه » • •

وبعبارة اخرى ، كانت المحكمة تقول بان الميثاق ما هو الا اعلان لعرف موجود فى القانون الدولي ، اي انها لم تضع قانونا جديدا انما كانت تعلن فقط الانظمة الموجودة فى عرف القانون الدولي •

وبنفس الطريقة اعلنت الجمعية العمومية للامم المتحدة بواسطة قرارها رقم ٩٦ (١) تاريخ ١١|١٢|١٩٤٦ «بان الابادة العنصرية تعتبر بموجب القانون الدولي بانها جريمة ضد روح واهداف الامم المتحدة وينبذها العالم المتمدن.»

ان البينة المدرجة اعلاه تكفي للاستنتاج ان القانون الدولي كان قبل محاكمات نورمبورغ عام ١٩٤٦ وقبل ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ كان يعترف بان الابادة العنصرية جريمة ينبذها العالم المتمدن ويعاقبها القانون الدولي •

ان الفظائع التي ارتكبها الاتراك عام ١٩١٥ والتي نظمتها الحكومة التركية ونفذتها كانت تهدف فقط لافناء امة • وقد سببت موت مليون ونصف المليون (أي معظم الارمن الذين كانوا يعيشون داخل الامبراطورية

العثمانية) • ان ذلك يشكل حتما ابادة عنصرية ضمن معنى هذه الكلمة • وفضلا عن ذلك فان اعمال الابادة العنصرية هذه التي ارتكبتها السلطات التركية كانت تشكل جريمة بموجب القانون الدولي ، ذلك لانه اثبت بان تحديد « الابادة العنصرية » بصفته جريمة ضد الانسانية يعاقب عليها القانون الدولي ، هي قاعدة مثبتة من قديم الزمان ومشمولة فى صلب القانون الدولي •

منذ الحرب العالمية الثانية اصبحت حماية الحقوق البشرية من اختصاص القانون الدولي • وهكذا نرى فى الاسباب الموجبة لميثاق الامم المتحدة نص على عزم شعوب الامم المتحدة « على اعادة تأكيد ايمانهم فى حقوق الانسان الاساسية وفى كرامة واهمية الكائن البشري وبتساوي حقوق الرجل والمرأة والامم كبيرها وصغيرها » • ويعلن الميثاق ايضا بان احدى غايات الامم المتحدة هي « انجاز تعاون دولي من اجل ترقية وتشجيع احترام الحقوق الانسانية والحريات الاساسية للجميع دون تفريق عنصري او جنسي او لغوي او ديني » • (المادة ١|١) بموجب المادة ١٣ من الميثاق : « على الجمعية العمومية ان تبدأبدراسات وان تضع توصيات من اجل • • • تقديم المعونة لتحقيق الحقوق الانسانية والحريات الاساسية للجميع دون تمييز عنصري او جنسي او لغوي او ديني » • تنص المادة ٥٥|| على نفس الشيء وعلى مراعاة الحقوق الانسانية والحريات الاساسية « بغية ايجاد ظروف استقرار ووجود دائم مما يلزم لايجاد علاقات صداقة وسلام بين الامم ترتكز على اساس احترام مبدأ تساوي حقوق جميع الشعوب وحق تقرير مصيرها » • ان جميع اعضاء الامم المتحدة قد نذروا انفسهم لاتخاذ اجراءات فردية ومشتركة بالتعاون مع المنظمة من اجل تحقيق هذه الغايات بموجب المادة ٥٦|| • وفضلا عن ذلك منح المجلس الاقتصادي والاجتماعي الحق ، بموجب المادة ٦٢|| ، بان « يضع توصيات من اجل رفع مستوى احترام حقوق الانسان ومراعاتها وكذلك الحريات الاساسية للجميع » •

كانت الجمعية العمومية للامم المتحدة فى جلستها ١٨٣ التي عقدتها بتاريخ ١٠|١٢|١٩٤٨ قد اتخذت قرار « اعلان عام لحقوق الانسان » • نبين فيما بعد بعض مواده المهمة :

المادة ٣ : لكل انسان الحق فى الحياة والحرية وضمان شخصه •

المادة ٥ : لا يجوز تعريض اي انسان للتعذيب او لمعاملة او عقوبة قاسية او غير انسانية او مذلة •

المادة ٩ : لا يجوز تعريض اي انسان للقبض التعسفي او الحجز او النفي •

المادة ١٧ (٢) : لا يجوز تجريد أي انسان من ممتلكاته بصورة تعسفية •

على الرغم من ان مقدمة التصريح المبين اعلاه والخطب المختلفة التي القيت عند اتخاذه تظهر بانها تشير الى ان الدول لم تكن تنوي الزام نفسها بمستند يلزمها قانونا ، انما كانت تهدف بايجاد قانون مثالي للاهتداء به • ومع ذلك يمكننا اعتبار هذا التصريح بانه مستند يتمم نصوص حقوق الانسان فى الميثاق ، الذي يعتبر بانه معاهدة ملزمة قانونا • وعلى هذا وعن طريق الادماج يمكننا معاملة هذا التصريح بانه جزء من الميثاق يوضح ويتمم مختلف نصوص الميثاق التي تتعلق بحماية حقوق الانسان •

ان الميثاق الاوروبي لحقوق الانسان الذي وقع فى روما عام ١٩٥١ هو خطوة اخرى للامام نحو الاعتراف للفرد بانه خاضع للقانون الدولي ونحو الحماية القانونية لحرياته • وقد انشأ هذا الميثاق لجنة ومحكمة خولا صلاحية حتمية للنظر فى مخالفات الحقوق الانسانية التي ترتكبها الدول الموقعة على هذا الميثاق ضد رعاياها •

ومع ذلك ، ان اهم خطوة تتعلق بجريمة الابادة العنصرية كانت اقرار الجمعية العمومية للامم المتحدة بتاريخ ١٩٤٨/١٢/٩ لميثاق يتعلق بالابادة العنصرية يشمل النصوص الاتية :

« بعد ان اطلع الفرقاء المتعاقدون على التصريح الذي اقرته الجمعية العمومية للامم المتحدة بموجب قرارها رقم ٩٦ (١) بتاريخ ١٩٤٦/١٢/١١ ، القاضي باعتبار الابادة العنصرية بانها جريمة بموجب القانون الدولي وتخالف روح وغايات الامم المتحدة وينبذها العالم المتمدن •

وتعترف كذلك بان الابادة العنصرية قد سببت فى جميع مراحل التاريخ خسائر جسيمة للانسانية ، وبما انها مقتنعة بوجوب ايجاد تعاون

دولي من اجل تحرير الجنس البشري من هذه اللعنة الشنيعة ،
لذلك جرى اتفاق الاعضاء على ما يلي :

المادة |١| يؤكد الفرقاء المتعاقدون بان الابادة العنصرية تشكل جريمة بموجب القانون الدولي ، سواء ارتكبت هذه الجريمة فى ايام السلم او فى الحرب • ويتعهدون بمنع ارتكاب هذه الجريمة ومعاقبة مرتكبيها •

– المادة |٢| فى هذا الميثاق تعني كلمة « ابادة عنصرية » أي من الافعال المبينة فيما يلي ، عندما ترتكب بغية افناء (كليا او جزئيا) مجموعة وطنية او عنصرية او جنسية او دينية بصفتها هذه :

(١) قتل اعضاء المجموعة •

(٢) التسبب فى الضرر الجسماني او العقلي الخطير لافراد المجموعة •

(٣) عندما تفرض عمدا على المجموعة شروط حياة قد ينتج عنها اتلافا جسديا كاملا او جزئيا •

(٤) فرض تدابير يقصد منها منع الولادات فى المجموعة •

(٥) نقل اطفال مجموعة قسرا الى مجموعة اخرى •

– المادة |٣| الافعال الآتية تلزم معاقبتها :

(أ) الابادة العنصرية •

(ب) التآمر على ارتكاب الابادة العنصرية •

(ج) التحريض المباشر والعام لارتكاب الابادة العنصرية •

(د) محاولة ارتكاب الابادة العنصرية •

(هـ) الاشتراك فى الابادة العنصرية •

المادة |٤| – الاشخاص الذين يرتكبون الابادة العنصرية او أي من الافعال الاخرى المدرجة فى المادة |٣| تجب معاقبتهم سواء أكانوا حكاما دستوريين او موظفين عامين او افرادا •

ان ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ يتعلق مباشرة بمذابح الارمن

فى عام ١٩١٥ ، لان هذه المجازر تشكل جريمة الابادة العنصرية بصورة خاصة • لتتمكن السلطات التركية من تنفيذ مخططاتها لابادة الامة الارمنية بغية حل المسألة الارمنية حلا نهائيا وازالة احد العوائق الهامة لتحقيق مخططاتهم الطورانية للاتحاد مع اتراك القفقاز واتراك آسيا الوسطى ، من اجل ذلك استعملت وسائل تفوق كل تصور ، بما فى ذلك ما استعمله واضعو مسودة ميثاق الابادة العنصرية • لقد ارتكبت جرائم لا تحصى تقع تحت طائلة نصوص المادتين ٢ و ٣ • وبموجب هذا المعنى فان ابادة السلطات التركية للارمن ربما تشكل اتم انواع الابادة العنصرية التي ارتكبها الانسان عبر التاريخ •

قد يكون هناك اعتراض على تطبيق ميثاق الابادة العنصرية الذي اقر عام ١٩٤٨ على مذابح ١٩١٥ لان ذلك يشكل مفعولا رجعيا • لا يمكن الاخذ بهذا الاعتراض نظرا للاسباب التالية :

(١) لقد لاحظنا فى الاسباب الموجبة لميثاق الابادة العنصرية وفي محاكمات نورمبورغ بان الابادة العنصرية تشكل جريمة بموجب عرف القانون الدولي • واستنادا لذلك فان ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ ما هو الا تصريح عن وجود قاعدة خاصة بذلك فى القانون الدولي •

(٢) حتى فى حال عدم الاعتراف بهذا العرف ، يمكننا ان نعتبر بان ابادة الارمن عام ١٩١٥ تخضع لميثاق ١٩٤٨ لان الابادة العنصرية التي ارتكبتها السلطات التركية عام ١٩١٥ ما تزال مستمرة حتى يومنا هذا • ان الارمن الموجودين حاليا فى داخل تركيا قد فقدوا تدريجيا ذاتيتهم او انهم فى الطريق الى فقدانها • منذ امد قريب فقط نقلت جريدة تركية خبرا مفاده ان قرية ارمنية فى منطقة ساسون قد اعتنقت الاسلام وحولت كنيستها الى جامع • وكذلك ، ان الارمن الموجودين فى البلاد الاخرى (خارج ارمينيا السوفيتية) هم فى طريقهم الى فقدان ذاتيتهم الثقافية او انهم سوف يصبحون كذلك • ففي كل مرة يفقد أي ارمني ذاتيته يمكننا اعتبار ذلك بانه الابادة العنصرية

المنظمه التي بدآت فى عام ١٩١٥ والتي لا تزال تحمل ثمارهـا ان الارمن الذين يعيشون اليوم خارج ارمينيا ، لم يتركوا ارضهم بمحض ارادتهم • وبما ان الهدف الرئيسي لميثاق الابادة العنصرية هو منع الافناء القسري لاي امة ، لذلك يمكننا ان نعتبر بان الابادة التدريجية للامة الارمنية التي بدأت فى عام ١٩١٥ والتي لا تزال حتى الان ، يمكننـا اعتبارها مخالفـة لنصوص ميثاق الابادة العنصرية •

يوجد مبدأ قانوني عام يقول بانه طالما استمر الخطأ وطالما استمر الشعور بنتائجه فان تاريخ البدء بالفعل من اجل تطبيق قانون لاحق لا يعتبر واردا • فاذا استمر الخطأ لدى تصديق القانون فان القانون يطبق على هذا الخطأ المستمر •

وبنفس الطريقة ، ان النصوص المتعلقة بحماية حقوق الانسان الواردة فى ميثاق الامم المتحدة (وهو مستند ملزم قانونا للدول ويوجد التزامات عليهم) وفى التصريح العام لحقوق الانسان الذي يتمم ويوضح نصوص حقوق الانسان فى الميثاق فهو لذلك يعتبر بانه تمديد لميثاق الامم المتحدة ، ان كل ذلك يطبق بنفس الطريقة على القضية الارمنية •

وبناء على ما ذكر يتحتم على جميع الدول الاعضاء فى منظمة الامم المتحدة ، او الموقعة على ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ ، او الدول التي ادلت بصوتها لمصلحة الاعلان العام لحقوق الانسان ، يتحتم عليها ان تقوم بالتزاماتها عن طريـق اتخاذ جميع التدابير اللازمـة لوقف الابادة العنصرية المستمرة للامة الارمنية بان تقدم العدالة الى الشعب الارمني وبان تطلب من تركيا بالرجوع عن الخطأ الذي ارتكبته عام ١٩١٥ والذي لاتزال ترتكبه عن طريق اجبار الارمن على العيش خارج اراضيهم التاريخية فيحكموا بهذه الطريقة بالخسارة •

على الرغم من ان الابادة العنصرية الاساسية نظمتها الامبراطوريـة العثمانية ونفذتها ، الا ان تركيا اليوم ، وريثتها وخليفتها بموجب القانـون الدولي ، قد حصلـت على جميع حقوق الامبراطورية والتزمت بجميـع موجباتها • فلدى القيام بتحكيم فى عام ١٩٢٥ يتعلق بتخصيص الديـون

العثمانية ، قال المحكم بورل ان تركيا الجمهورية تعتبر الوريثة الشرعيـة لشخصية الامبراطورية العثمانية السابقة •

بناء عليه فهي تعتبر بأنها مسؤولية ملقاة على عاتق الدولة التركيـة بصفتها هذه وذلك دون تجريم الشعب التركي ككل او الاتراك بصفتهم الفرديـة •

الادب الارمني المعاصر والمجازر التركية عام ١٩١٥

يشكل الادب الارمني المعاصر جزءا من ولادة عامة جديدة للاحساس الادبي الذي اتخذ له شكلا فى اوروبا عندما اخذ تلاقي الثورتين الصناعية والفرنسية ينتشر نحو شرقي المتوسط وفى داخل الشرق الادنى • يرجع تاريخ اليقظة العربية الى حوالي عام ١٨٥٠ واليقظة التركية الى عام ١٨٧٠. اما النهضة الارمنيه فقد بدأت فعلاحوالي عام ١٨٢٠ فى مدينة ازمير ، وهي المدينة التي اطلق عليها الاتراك اسم « مدينة الكافرين » • بدأت الولادة الجديدة بشكل رد فعل للدفاع عن النفس ضد النشاط التبشيري الذي كان يقوم به المبشرون البروتستانت الذين قدموا المدينة عام ١٨١٩ • وهكذا نرى بان هذه الولادة قد تحولت سريعا الى اهتمام شديد فى جميع انواع الادب ، تسلسلا من النشرات اللاهوتية والكتب الدينية حتى ترجمة جميع ما كان يأتي من الغرب وتقليده • وكان سكان ازمير الارمن حوالي ٥٠٠٠ نسمة فقط ، انما وجود الجرائد والمطابع والمدارس والمنشورات والمنظمات الاجتماعية والاتصالات بالثقافات الاجنبية وخلاف ذلك ، قد غير قليلا الناحية الناعسة القنوعة لمدينة غنية • كانت ازمير عام ١٨٤٠ صورة تقريبية لمدينة غربية اذ كانت تضم جاليات يونانية ويهودية وايطالية وافرنسية وارمنية تتنافس مع بعضها فى جميع حقول الثقافة والاقتصاد • ان الزلزال المخرب الذي حل بها عام ١٩٤٥ وضع حدا لكل امل فى جعل ازمير مركزا لحياة الارمن الثقافية. فقط كان يوجد ما يقارب ٢٠٨٠٠٠٠ ارمني يعيشون حينذاك فى تركيا ولم يكن بالامكان لمدينة مهزوزة ان تستلم القيادة

كانت هذه القيادة من نصيب القسطنطينية التي كانت تضم حوالي ١٥٠٠٠٠٠ ارمنيا بين سكانها • ولم يكن فى عام ١٨٤٥ لهذه المدينة ما تتباهى به سوى النزر اليسير ، اذ كان فيها مطبعتين وعشرة مدارس

وصحيفتين • انما انطلقت الشرارة من ازمير ، وقد انطلقت بشكل نفوذ وهجرة رجال الفكر وخلاف ذلك • حوالي عام ١٨٤٥ انضم الكاثوليكيون الى البروتستانت للهجوم على الارمن الارثوذكس • ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة للرد على هذا الهجوم وهي اعادة الاحترام الذاتي للجماهير بصفتهم وحدة اثنوغرافية ، وتثقيفهم ، واعادة الثقة الى نفوسهم من اجل التعويض عن الحماية الدبلوماسية الاجنبية التي كان يقدمها كل من الكاثوليك والبروتستانت الى المرتدين الى دينهما • وفى وسط خضم لا يوصف من الفوضى والحماس الجماعي بدأ المجتمع باسره بالعمل ، مبتدئا من الاساقفة والاحبار الاغنياء حتى المعلمين والعمال التعساء • فى عام ١٨٥٩ وجدت ٤٢ مدرسة تضم حوالي ٥،٥٠٠ تلميذا ، و ١٠١ اتحاد خيري وثقافى لدعمها ماليا ، وكان كل هذا فى القسطنطينية • حتى العام ١٨٦٣ انشئت فى العاصمة ١٥ مكتبة عامة ، واصدرت ٢٥ جريدة ، ووضع فى التداول ٣١ مجلدا من الترجمات •

ان كل ذلك كان قليل الاهمية بالنسبة للمقاييس الغربية ، ولكن وجوده ضمن الامبراطورية العثمانية المتعفنة فى اواسط القرن التاسع عشر، حيث (باستثناء شباب الاتراك المنفيين الى اوروبا) كانت ذهنية الحياة التركية تنحصر فى تقليد الشعر الكلاسيكي الفارسي بالدرجة الاولى وتقليد الشعر الكلاسيكي العربي بالدرجة الثانية ، ان ذلك يجعل مجهود هؤلاء الرجال (الوضعين) جبارا بطوليا • وتبدو هذه الحقيقة واضحة اذا ما قورنت بالاتراك الذين كانوا يعتمدون على المبادرة الاجنبية والمساعدة ، الشيء الذي كان مستحيلا بالنسبة الى الارمن • وهكذا نرى بان اول مطبعة تركية كانت من نتاج شخص هنغاري منفي متقلب فى مذهبه وقوميته (أ • تانبينار ، ١٩ اصير ترك ادبياتي طريحي ، اسطنبول ١٩٥٦ ص ١٢) ، وقد نشر اول جريدة تركية شخص انكليزي يدعى تشرشل (ص ١١٦ نفس المصدر) • وقد كان الايطاليون اول من قام بالتمثيل المسرحي (ص ١١٨ نفس المصدر) ، وقد أسس شخص ارمني اول شركة مسرحية دائمة فى عام ١٨٤٢ (ص ٢٥٥ نفس المصدر) الخ •• كان الارمن (واهمهم بابا همبرتسوم) مسؤولين الى حد كبير عن ادخال النوط الموسيقي الغربي

الى تركيا ، وعن وضع الدستور التركي لعام ١٨٦٠ ، وذلك بفضل تعاون اوديان وروسينيان تعاونا وثيقا مع مدحت باشا ونامق كمال فى باريس) •

لقد كان البدء بطيئا جدا • لقد سام الاتراك طيلة قرون عديدة الارمن اذلالا منظما دون هوادة وبصورة مثيرة بصفتهم ارمـــن وبصفتهم اقلية (مله) وفى عام ١٧٩٨ فقط سمح الباب العالي للاقليات فى فتح مدارس خاصة بهم • لم يكن للاتراك حروف ابجدية وكانوا متزمتين فى جميع حقول الحياة ، وخاصة فى الحقل القومي • اليكم ما قاله رجل فرنسي كان يعيش فى هذه الفترة (عام ١٨٥٨) فى القسطنطينية : « عندما كنت اقوم بتعليم اللغات الحديثة كنت اعامل كعدو وكنت القي هذه المعاملة خاصة من رجالة الدولة والشباب » • (راجع أ• فامبري ــ تركيا اليوم وتركيا قبل ٤٠ سنة ــ قسطنطينية ١٨٩٨ ص ٨) • ويضيف قائلا : « كنا نعامل نحـــن الاوروبيون وكأننا اصحاب عقول شيطانية » • وكان السلطان عبد المجيد ، ومن ثم الهاتي شريف كولهانا عام ١٨٣٩ والهاتي همايون عام ١٨٥٦ ، اول من نفخ روح الحركة فى الامبراطورية المثقلة ودفعها فى طريق الاصلاح الاجتماعي الذي قادها الى ثورة عام ١٩٠٨ •

فى الواقع كان الخوف والاحتقار المتبادلين سبب انكفاء كل مـــن المجتمعين على نفسه • وكان قليل من النفوذ يعمل فى أي الاتجاهين بالمعنى الذهني • وهكذا لم يكن لعام ١٨٤٥ اي معنى بالنسبة للاتراك ، انما كان هذا العام بالنسبة للارمن حدا فاصلا • لقد ارسل فى ذلك العام وفـــي السنوات الست التي تلته ثلاث مجموعات متتالية من التلاميذ الشباب الاذكياء (بلغ عددها ٤٨) ، ارسلوا الى مراكز العلم فى اوروبا وبصورة خاصة الى باريس • وقد تخصصوا فى مختلف فروع الثقافة العاليـــة ، كالطب والعلوم الاجتماعية والاقتصاد • ولم يكن هؤلاء المتخرجون الـ ٤٨ المتحمسين سوى نقطة فى اليم • انما كان ذلك قد اوجد فرقا كبيرا بين الاعيان اصحاب اليد العليا ذات الاتجاه القديم الشديد المحافظة ، المتحالفين خاصة مع رجـــال الدين الاميين ، وبـــين روح طموح الجيل الجديـــد وديناميكيته الناشيء عن البورجوازية النامية • لدى عودة هؤلاء المثقفين الى القسطنطينية اشغلوا جميـــع الوظائف القيادية فى المجتمـــع واخذوا

ان افضل دليل يثبت وجود هذا العرف فى القانون الدولي الذي يحدد الابادة العنصرية بانها جريمة ضد الانسانية ويعين لها عقوبة ، هو الحكم الذي صدر عن محكمة نورمبورغ عام ١٩٤٦ بشأن مجرمي الحرب الالمان الكبار • لقد حددت المادة ٦ (ج) من ميثاق آب ١٩٤٥ ، الذي وقعته قوى الحلفاء والذي عدله بروتوكول ٦|١٠|١٩٤٥ ، حددت الجرائم ضد الانسانية بانها المذابح والافناء والاستعباد والابعاد وخلاف ذلك من الاعمال الغير انسانية التي ترتكب ضد الشعب المدني قبل الحرب او اثنائه ، او الاضطهاد السياسي والعنصري والديني • ان احدى النقاط الرئيسية التي ارتكز اليها الدفاع الالماني كانت ان ميثاق ١٩٤٥ وضع قانونا جديدا عن طريق تحديد الجرائم ضد الانسانية وتطبيق هذا القانون على الافعال التي ارتكبت قبل ١٩٤٥ بحيث تعطيه مفعولا رجعيا • ان اعطاء أي قانون مفعول رجعي يخالف المبدأ الاساسي للعدالة الطبيعية • وعلى هذا اجابت المحكمة بما يلي :

« لا يعتبر الميثاق ممارسة تعسفية للسلطة من جانب الامم الظافرة ، ولكن فى نظر المحكمة • • • ان ذلك يشكل تعبيرا للقانون الدولي الموجود منذ انشائه » • •

وبعبارة اخرى ، كانت المحكمة تقول بان الميثاق ما هو الا اعلان لعرف موجود فى القانون الدولي ، اي انها لم تضع قانونا جديدا انما كانت تعلن فقط الانظمة الموجودة فى عرف القانون الدولي •

وبنفس الطريقة اعلنت الجمعية العمومية للامم المتحدة بواسطة قرارها رقم ٩٦ (١) تاريخ ١١|١٢|١٩٤٦ بان الابادة العنصرية تعتبر بموجب القانون الدولي بانها جريمة ضد روح واهداف الامم المتحدة وينبذها العالم المتمدن.»

ان البينة المدرجة اعلاه تكفي للاستنتاج ان القانون الدولي كان قبل محاكمات نورمبورغ عام ١٩٤٦ وقبل ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ كان يعترف بان الابادة العنصرية جريمة ينبذها العالم المتمدن ويعاقبها القانون الدولي •

ان الفظائع التي ارتكبها الاتراك عام ١٩١٥ والتي نظمتها الحكومة التركية ونفذتها كانت تهدف فقط لافناء امة • وقد سببت موت مليون ونصف المليون (أي معظم الارمن الذين كانوا يعيشون داخل الامبراطورية

الصحف الارمنية اليومية الفين عدد • ومن بين الـ ١٢٠ تلميذا الموجودين فى مدرسة التجارة الامبراطورية كان يوجد ٨٠ ارمنيا ، وقد انتخب طبيب ارمني يدعى سرفتشنيان لاشغال منصب رئيس اتحاد الطب الشرقي فى القسطنطينية •

حوالي عام ١٨٩٠ كان المجتمع قد اكتسب لنفسه شخصية محترمة مثقفة فاصبحت غير قادرة على تحمل الذل الذي كانت تعانيه حينذاك على يد العنصر الحاكم • ظهرت مجموعات صغيرة من الانصار فى المقاطعات الشرقية التي كان الارمن يعانون فيها اشد الاضطهاد على ايدي الاكراد القساة والاتراك المحليين • ان الجهاز المهترىء الخاص بالسلطان الاحمر جعل الاقليات لا تطيق الحياة • وكانت هذه الاقليات دائما تطالب بالاصلاح وبالحقوق المدنية ولكن دون جدوى • ومع ذلك استمر الارمن فى دفع الضرائب التي كانت تتوجب عليهم كما استمروا فى خدمة القوات المسلحة وفي القيام بواجباتهم كاملة كمواطنين مخلصين ، انما فى داخل البلاد والأقاليم كانوا ينظمون الدفاع عن انفسهم وكانوا يصطدمون مع الاتراك والاكراد •

اما الوجه الآخر للمسألة فهو اكثر تشجيعا • فى نهاية القرن كان يملك الارمن ٦ جرائد يومية و ٨ جرائد شهرية فى القسطنطينية • وكانت الجريدة اليومية الاولى ، هايرينك ، تبيع ٥،٠٠٠ عدد • كما ان ٤١ جريدة جديدة ظهرت الى حيز الوجود منذ عام ١٨٨٤ • ولكن جهاز الحكم قد زاد من ضغطه • ان مجازر عام ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦ قد اجبرت العديد من اصحاب الفكر على اللجوء الى بلاد شرقي اوروبا وعلى اثارة حرب فكرية من هناك•

على الرغم من جميع القيود المفروضة تمكن الارمن من تسيير مدارسهم ومن نشر جرائدهم وتأليف كتبهم • فى عام ١٩٠٠ وفى خضم اسوأ فترة للعهد الحميدي احتفظ الارمن بـ ١١٠٠ مدرسة كانت تضم بين جدرانها ١٢٠،٠٠٠ تلميذاً فى كافة انحاء الامبراطورية. وكان يوجد فى القسطنطينية وحدها ٤٢ مدرسة تضم ٥،٦٠٠ تليذاً ، وكانت تقدم معونات مدرسية لثلث هذا العدد • يمكننا فهم المعنى الكامل لهذه الارقام اذا ما اعتبرنا ان التعليم كان يجري على اساس الاموال العامة والهبات الخاصة ، وبعبارة اوضح

كان يجري عن طريق الهبات التي كانت تقدمها جميع الطبقات الاجتماعية •

خلع عبد الحميد فى عام ١٩٠٨ وكانت هذه المناسبة فرصة لتآخ قوي حماسي بين العنصرين • لان كل منهما كان يقاسي على يديه وكل منهما شعر بأن عهدا جديدا قد انفتح له للتعبير الحر ولوجود يليق بالانسان • اما بالنسبة للارمن فقد كانت هذه المناسبة نقطة بدء لنشاط لم يسبق له مثيل فى جميع حقول الثقافة • وهكذا نرى ان فترة السنوات السبعة الممتدة بين عام ١٩٠٨ و ١٩١٥ ، ، قد وضعت فى التداول ١٠٣ مجلات وجرائد جديدة • فى القسطنطينية وحدها كان يوجد فى عام ١٩١٠ ثمانية جرائد يومية و ١٥ مجلة من جميع الانواع • وفى خلال السنوات الاربع التي تلت تنازل عبد الحميد فتحت ١٤٠ مدرسة جديدة تضم ١٢،٠٠٠ تلميذ • وفى نفس هذا الوقت عاد معظم اصحاب الفكر المنفيين الى العاصمة للتمتع بالحرية التي اوجدت • وفى هذا الخضم من النشوة تغاضى الارمن عن مجازر ادنا عام ١٩٠٨ التي كلفتهم زهاء ١٥٠،٠٠٠ من مواطنيهم • وكانت هذه الفترة ولادة جديدة محمومة من جميع الوجوه ــ مؤتمرات ، وحفلات موسيقية ، واجتماعات عامة ، وتمثيليات مسرحية ، واجتماعات شعبية ، وعلاقات طيبة مع الاتراك الشباب ، وآمال للاصلاح واستقلال داخلي ذاتي فى المستقبل للمقاطعات الارمنية • كانت كتلة متراصة تضم ما يزيد على ثلاثماية من اعلام الفكر ، وهي نخبة يومها وافضل ما انتج خلال ٧٥ سنة من العمل الحثيث والتضحيات الجسام ، كانت تشغل مقدمة المسرح فى جميع نواحي النشاط الوطني • ومما يزيد فى تأثير هذه الصورة ان الاتراك كانوا لا يزالون متأخرين كثيرا فى جميع النواحي ويمكننا ان نقول أنه كان لديهم نسبة الثلث من معين رجال الفكر الارمن •

بالطبع لا تشكل الجرائد والمدارس كل شيء فى الادب • لقد شهدت الـ ٧٥ سنة بزوغ فجر اجيال متتالية من الادباء والشعراء الذين كانوا قد جلبوا الاحرف الارمنية عبر مختلف مراحل الادب الاوروبي فى القرن التاسع عشر مع تأخير ٢٥ سنة • لقد كانت فرنسا هي البلاد المحتذى بها وكان شبح هوغو يرفرف فوق الجميع • من هنا نشأت اولا المدرسة الرومانطيقية للشعراء وكانت تضم رجالا كتوريان وبيشيكتاشليان. وجاءت

بعدها فى حوالي عام ١٨٨٠ المدرسة الواقعية للقصصيين ولادباء النثر والنقد وكان زيباريان وبارونيان اللذان لا تمكن مقارنتهما كانا فى الطليعة • وقد ازهرت هذه المدرسة بكامل جمالها حوالي نهاية القرن • وفى هذه الاثناء انضم الى هذه الحركة جيل جديد ونشيط من الابناء امثال زوهراب وباشاليان وكامسراكان واوديان وتشوبانيان وزارتاريان وغيرهم •

لعب ، فى هذه المرحلة ، عهد الطغيان دورا غريبا فى تحويل الادباء • مجروحين فى كبريائهم وفاقدين حريتهم كادباء ، تمكن دمهم الفني من ايجاد طريق له بشكل ابداع روحي ورمزي وابداع فى الجمال ، وخاصة فى الشريان الشعري • مدارنتس وسيامنتو وفاروجان وتيكيان وتشراكيان جميعهم ينتمون لهذه الفترة ويشكلون مجتمعين اعظم جيل موهوب للادباء الارمن • اما الجناح الاخر لهذا الجيل فكان يتألف من كتاب النثر امثال باسيان وبارتيفيان واوشاكان وشانت وزاريان • يكاد الانسان لا يصدق فى هذه الايام بان هذه الكثرة من المواهب قد وجدت فى نفس المكان وبنفس الزمان • ولكنها وجدت بفضل القوة الادبية والذهنية الهائلة التي حبست خلال ستة قرون من العبودية وقد اطلقت من عقالها لحد ما من جراء الارتفاعات فى اوروبا فى نصف القرن وكذلك بفضل الدور الذي لعبته اخوية مخيتارست فى البندقية التي لم تألوا جهدا، من عام ١٨٠٠ الى ١٨٩٠، فى تكييف عقول النشىء نحو الثقافة الاوروبية ونقل روح الرومانطيقية والكلاسيكية من اوروبا الى الشرق ، وبالاخص الى تركيا •

فى ليل ٢٤ نيسان ١٩١٥ حضر شرطة اتراك حصيفو الرأي ومهذبو الى بيوت اصحاب الفكر المعروفين فى المجتمع الارمني وطلبوا اليهم ان يرافقوهم الى مركز البوليس « من اجل بعض المسائل الصغيرة » • ولما لم يكن لهؤلاء الرجال اي شكوك رافقوهم فزجوا بهم فى مختلف سجون العاصمة ومن هناك نقلوهم الى سجون المقاطعات • ومن ثم وبسرية تامة اخذوا الى اماكن مجهولة ودون محاكمة او ما يشبه أية عدالة انسانية معروفة ذبحوهم ، فذبحوا البعض منهم بدم بارد وسلخوا جلد غيرهم حتى الموت وسحقوا العديد منهم بالحجارة وقطعوا خلافهم اربا واغرقوهم

وحرقوهم او ذبحوهم ذبح النعاج • من بين الثلاثماية رجل الذين طوقوا في تلك الليلة لم ينج سوى ثلاثين فقط • • • وهكذا نرى انه في بضعة ايام قضي على كافة رجال الفكر الشبان الموهوبون والمخلصون • واعظم من ذلك ما حدث في المقاطعات حيث كان الذبح المنظم والابعادات القوية مما اودى بحياة حوالي ١،٢٠٠،٠٠٠ • ان هذه القضية لهي اشد بربرية في افناء الجنس البشري من جميع ما ارتكب ضد أي امة في الازمنة المعاصرة• لقد كانت الضربة قاضية • وفي ليلة وضحاها فقدت القسطنطينية كيانها كمركز للحياة الوطنية • وكل ما تبقى من هذا الجيل المجيد اختبأ او تمكن من الهرب عبر الحدود الى بلغاريا • وكان عددهم لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة ولا يكادوا يكفوا لتدوين الحادث • • • وفي الوقت المناسب وقف ما تبقى من الامة على اقدامهم وتغلبت ارادة الحياة التي لا تقهر لدى الارمن على الطوفان في مختلف البلدان التي لاذ اليها الناجين • (البلاد العربية وفرنسا واليونان والولايات المتحدة الاميركية وغيرهم) ولكن ويالالاسف المجد الذي كان هو ذاته الادب الارمني في القسطنطينية قبل عام ١٩١٥ كان قد اتلف الى الابد •

على هامش الابادة العنصرية

إبادة الاثار الفنية

إن في مجموع الحوادث، التي أذاعت شهرة السياسة التركية في تقتيل الارمن وإبادتهم عن بكرة أبيهم ، خلال أعوام ١٩١٥ — ١٩١٨ وأشاعت دخائرها ودفائنها ، نلاحظ نقطة ذات أهمية بالغة تستحق الدرس والتعمق ، ولكننا لا نخصها بالاهتمام الكافي بل نمر بها عادة مرور الكرام ، دون ان نتفوّه بكلمة ؛ الا وهي إبادة آثار الريازة (الهندسة المعمارية) الارمنية واستئصالها. هذا التخريب الذي سبق ورافق نكبة التهجير والتشريد والمجازر ودام بعدها حيناً من الزمن .

ان الجدير بالذكر على هامش الابادة العنصرية ، والتقتيل الجماعي الفريد من نوعه في تاريخ البشرية ، بانها كانت في الواقع خطة مرسومة ، واختباراً مدروساً ، ومحاولة اولى ، تستهدف الفن الهندسي المحض والحضارة الارمنية الوطنية . هذه الابادة التي تركت اثراً عميقاً خطيراً وفراغاً كبيراً ونتائج وخيمة في تصميم الحضارة والفن العالمي.

إن أرمينيا كانت عبر العصور قوية البنية ، صحيحة الجبلة ، دائبة الحيوية والتوثب والابتكار ، وإحدى المختبرات العامرة النشيطة الخلاقة في الفن المسيحي .

ان الإصالة والخوارق من الأعمال ، والتوثب والانطلاق ، وقوة تفهم الجماليات وتذوقها فطرياً، هي مفاعيل ومعللات أساسية في فن العمارة الارمني، وأحدى التعابير البليغة للموهبة الارمنية وعصارة نبوغها الخلاق فالوحدة النوعية

المدهشة السائدة في النماذج المختلفة ، والتي تشمل انواعاً هامة وكبيرة من الاشكال تفسر الانطباعات الكاملة في التفسير الانشائي ، التي تكشفه أمام أنظارنا الآثار الانشائية الأرمنية . فهناك مهندسون بارعون وعلماء آثار ، من مختلف الأجناس والبلدان ، قاموا بجهود جبارة وخصصوا أوقاتهم لدراسة هذه المباني الأثرية ، فأحنوا رؤوسهم شاخصين أمام تلك المشاهد الفنية ، من عبقرية وهندسة وجمال ، وأصبحت ثمرة جهودهم اليوم معرفة كاملة عظيمة في مجلدات كتبت بلغات مختلفة .

ان نتيجة وضع مستندات التنقيب عن الاثار غير الكافية ، كانت الهندسة الارمنية منذ وقت طويل تعتبر بانها فرع اقليمي للفن البيزنطي ، ولكن في اوائل هذا القرن اظهرت دراسات طوراماتيان ، البديعية الأرمنية واكتشفت خصائصها الاساسية وحددت مراحل تطورها[1] . كما نسب سترسيكويسكي لأرمينيا دورا اساسياً في توسيع انواع القبب والاشكال المسيحية عامة[2]

ان بالتروزايتس اثبت من جهته بعد ان وضع دراسات مقارنة دور ارمينيا في ابداع الاشكال والفن التي سكنت فيما بعد في اوروبا ، ابان انطلاق الفن الروماني والغوطي.[3]

وبهذه الطريقة اقتيد العالم العلمي تدريجياً أن يجد في ارمينيا كما يقول ، المؤرخ هنري فوسيلون « ان لم يكن محدد العناصر الضرورية ، فعلى الاقل ملجأ طبيعياً موهوباً بقدرة فائقة للاشعاع والإبداع[4] »

ان بوتقة الريازة والفنون التي اصابها عبر العصور الخراب والدمار وعصفت بها يد الهدم الشريرة ، كانت ما تزال تحتوي حتى اوائل هذا القرن عدداً كبيراً مرموقاً من الآثار التاريخية الناطقة بالعبقرية المبدعة ، التي بهرت وسحرت أعلام وعباقرة هذا الفن وعشاقه . كما ان اعمال التنقيب والاصلاح والترميم في اشهر هذه الاثار والمباني قد بدأت في هذه الفترة من الزمن في ارمينيا الروسية (ارمينيا الشرقية) ففي مدينة « آني » عاصمة الدولة البكرادونية ، المدينة التي كان الناس يحلفون بقدسيتها ، بما كانت تضم في رحابها من كنائس واديرة

لا تحصى ، (وقد عُرفت هذه المدينة الشهيرة بمدينة « الف كنيسة وكنيسة ») . كانت الحفريات وعمليات التنقيب تجري بدقة وانتظام وعلى قدم وساق ، وتبين من نتيجة هذه الحفريات ان «آني» كانت تضم تحت انقاضها واطلالها ، الصورة الحقيقية الناطقة بامجاد الهندسة العمارية الارمنية في القرون الوسطى ونهضتها الخلاقة، وعبقريتها المبدعة، فاطلع عليها علماء الآثار القديمة والمدنيات، وكشف الغطاء عن احد المهود الاولية المبدعة في فن الاقواس والحنايا والعقود التي شُيدت وفي سمتها الصليب ، (المصلبيات) ولكن — ويا للأسف — كان من المستحيل ان تمتد اعمال التنقيب والحفريات الدقيقة وترميم الآثار وتجديدها ، وتتناول الاراضي الارمنية في تركيا ، التي كانت حدودها مغلقة فعلاً امام العالم المتمدن بسد متين محكم من بربرية وهمجية مئات السنين المتتالية المتعاقبة ، ومع هذا فلم تكن اقاليم وولايات ارضروم ، وفان ، وبطليس ، وموش ، وحتى بلاد كيليكيا ، أقل غنى وثروة بمعالم الآثار الارمنية ونهضتها الخلاقة في القرون الوسطى والاجيال الخالية .

إنه من العسير علينا ان نقدر ونقدم في هذه العجالة وبهذه الكلمة الموجزة الاحصاءات الدقيقة الكاملة والبيانات المفصلة بالخسائر الفاضحة والخراب والدمار الذي اصاب التمدن العمراني والفنون الارمنية ، بسبب ما ابتلت به الأمة الارمنية من تهجير وتقتيل وإبادة . وهل من المستطاع تثمين كنوز ثقافة ونهضة أمة ، من ادابها وعلومها وفنونها وعمرانها ؟ وتخمين القيمة الحقيقية ، لتلك النوادر النفيسة ؟ التثمين في هذا الملك يحط من قيمتها ويكون غالباً إذلالاً وتشويهاً لجمالها وأدبها وقدسيتها التي لا تقاس ولا تقدر.

وبحسب بيانات واحصاءات البطريركية الارمنية في القسطنطينية[٥]، فقد كان يوجد في سنة ١٩١٤ ، على الاراضي الارمنية (ارمينيا الغربية الخاضعة للسيطرة التركية) ، ٢١٠ أديرة، فاذا زيد هذا العدد على عدد الكنائس الرهبانية ، فيكون مجموع المؤسسات الدينية ، من اديرة وكنائس ومعابد

يبلغ (٧٠٠) مؤسسة . وحسب سجلات نفس المرجع ، بطريركية استنبول ، فقد كانت عدد الكنائس الخورانية (المختصة بالرعية) وحدها ، دون ان تحسب مع الكنائس الرهبانية والاديار والمعابد ، ١٦٣٩ كنيسة . (ان هذا العدد يخص الكنائس الملية الارمنية الارثوذكسية ، ولا علاقة له بكنائس واملاك الطائفة الارمنية الكاثوليكية والارمن البرتستانت) .

وكان في تلك الفترة من الزمن اكثر من مئة ١٠٠ دير أرمني من هذه الاديرة ينعم بقسط وافر من الازدهار واليمن . فلم تكن ، تلك الاديرة والكنائس ، بيوت صوفية وصوامع منزوية ، يتعبد فيها الدّيار والراهب والناسك ، بل كانت حسب احدى التقاليد القومية الموروثة منذ القديم مركزاً ثقافياً علمياً ومحفل الادباء والعلماء . كما كانت تلك الكنائس والمعابد متاحف عامرة بفضل ما تضم من النفيس النادر من ذخائر جليلة وبقايا القديسين ، ومخطوطات قيمة وزخارف رائعة وصلبان مرصعة مطعمة ، وانصاب منحوته ، ومقرنصات وجدران منقوشة بالنقوش والتصاوير الناتئة الفريدة في فنها وتنسيقها ، ورسومات وتحف واثار ونماذج لا تحصى ، من الفنون الجميلة .

ان تلك الاديرة والكنائس التاريخية التي كانت ثروة وطنية لا تقدر ومحافل علمية تشع نور العلم والفنون ، كانت اكثر من ان تحصى . واننا نأتي هنا على ذكر بعضها ، على سبيل المثال لا الحصر والعد ، فمنها : دير القديس « كرابيت » ، ودير « آراكيلوتس » (دير للرسل) في ولاية « موش » ودير « فاراك » ودير اختمار التاريخية الجميلة الكائنة على سطح جزيرة آختمار المسماة باسمها في ولاية وان ودير « آفاك » ودير « كارمير » (الأحمر) في ولاية ارضروم .

ولا نريد أن نطيل القائمة ونذكر الأديرة والكنائس والمراكز الدينية العديدة العائدة لجثلقة كيليكيا (كاثوليكوسية كيليكيا) بل نكتفي بختمها بذكر دير القديس « نشان » في سباسطية ودير آرماش الشهير الكائن في

ضاحية استنبول

ان جلال وبهاء وبهجة وجمال ، الريازة (الهندسة المعمارية) الأرمنية في القرون الوسطى ، (ان تاريخ احدث بناء من بنيانها ، دون ان نأخذ بعين الاعتبار ، تاريخ ترميمها وتصليحها ، قد شيد في القرن الثالث والرابع عشر ، كما ان بعض الأبنية القديمة المزمنة بنيت ورممت على أنقاض الهياكل والكنائس والمزارات والمعابد المشيدة قبل العصور المسيحية) . كانت مزدهرة في شتى النواحي بما تراكم وتجمع بين ظهرانيها من كنوز الثقافة العامة والفنون الجميلة .

وليس من الانصاف ان نكتفي بتقديم مآثر فن البناء (الهندسة) في ارمينيا الغربية (ارمينيا التركية) مستندين ومكتفين بما جاء في مراجع وبيانات البطريركية الأرمنية في استنبول. فلا شك ان ذلك سوف يشوّه النبوغ الفني ويحطمن قيمته الحقيقية ، كما سيكون غدراً وخيانة للتاريخ والمدنية ، ومما لا ريب فيه ان البيانات والاحصاءات الدينية الرسمية لم ترقم على صفحاتها عدداً كبيراً من الأديرة والمعابد المهجورة ، لكونها أنقاضاً وخراباً عملت فيها يد الهدم الشريرة وتركتها مسيبة مهجورة ، فلم تشتملها البيانات والقوائم الدينية على الرغم مما لها من قيمة فنية عمارية لا يستهان بها ، كما ان تلك البيانات والسجلات الدينية لم تسجل عدد المباني العسكرية والمدنية ، (من حصون وقلاع ، بقايا قصور ، خانات ، سرايا ، جسور ، قناطر وأنصاب وآثار تذكارية) من النبوغ والموهبة الأوراتية (الخلدينية) والأرمنية .

ان الأراضي الأرمنية هي المستودع العامر الفني بمعالم هذه المآثر المندثرة في كل حدب وصوب ، ان التربة الارمنية تتضوع بالاثار التاريخية وبنماذج الفنون الجميلة الفريدة .

ان في سلسلة الدراسات المنشورة والمصنفة خلال ١٩٤٠ - ١٩٥٣ لمؤلفها حضرة الأب هماز اسب فوسكيان (من أباء مخاريست فينا) ، يحاول الأب المؤرخ وضع بيان شامل مفصل عن عدد الأديرة الرهبانية ، واماكن

العبادة الدينية المنتشرة في جميع الاقاليم والولايات الأرمنية ،دون ان يتطرق في دراساته الى تلك الأديرة والكنائس التي كانت في عشية الحرب الكونية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٥ ، عامرة وعاملة ونشيطة[٦] . وقد توصل في ابحاثه الى اثبات وجود ٥٧٣ ديراً تاريخياً في ولايات آرضروم ووآن وبطليس ، و١٥ ديراً في ضواحي سباسطية (سفاز) .

وقد استند الأب فوسكيان ، في ابحاثه ودراساته الى المراجع الارمنية الموثوق بها ، منها (مؤلفات الأب « أليشان » العالم الطبيعي المشهور ببحوثه العلمية والجغرافية والتاريخية ، ودراسات البحاثة الاثري إنجيكيان والعالم افريكيان ، وكاثوليكوس كيليكيا كريكين الاول وغيرهم من المؤرخين وعلماء الاثار .

فيظهر لنا من هذه الدراسة بكل وضوح وجلية ، ان بيانات واحصاءات البطريركية الأرمنية في القسطنطينية كانت ناقصة وغير كاملة وشاملة .

والجدير بالذكر ان هذه الاحصاءات والبيانات لم تسجل وتحصَ الثروة المعمارية الكائنة في ولاية قارس ، التي كانت اذ ذاك خاضعة للنفوذ الروسي ، ففي اواخر سنة ١٩٢٠ عندما سلخت القوات الكمالية بطريقة الغـــدر والخيانـــةوالمؤامرة ، هذه المقاطعة العامرة وحرمت ارمينيا من الثروة المعمارية الرائعة الفنية الموجودة في آني وقارس وخيتسكونك وتيكور .

ان الشواهد والحوادث التاريخية تثبت اثباتاً قاطعاً لا شك فيه ، ان تدمير وابادة هندسة العمارة والفنون الارمنية ،وطمس معالمها واثرها وعمليات التقتيل الجماعي وابادة العنصر الأرمني ، لم تبدأ بمجازر ومذابح سنة ١٩١٥ الرهيبة . فحسب ما سجله التاريخ في سجلاته الخالدة ، من دراسات المؤرخين المعروفين بامانتهم واطلاعهم العلمي الواسع ، يبدو لنا بكل وضوح ان طامة الشعب الأرمني قديمة العهد وسبقت تاريخ تلك المذابح والمجازر الرهيبة . واننا نستدل من دراسات المؤرخ كيفورك ميسروب ان اكثر من ٢٠٠ دير أرمني قد دمر وطمست معالمها من قبل الأتراك خلال الثلاثين سنة (١٨٨٠–١٩١٤)

التي سبقت حوادث ومجازر سنة ١٩١٥ . وفي سنة ١١٣١ كتب المؤلف نفسه يقول«ان عددا مهما من هذه الأديرة لم يترك لها يد الهادم الجاهل اثراً وانقاضاً فقد افنى وطمس معالمها عن الوجود ، كما ان قسما منهـــا اصبحت مساكن واصطبلات للاكراد الغاصبين البغاة ، أو خانات لعابري السبيل من قوافل النور المتجوله » .

وبحلول سنة ١٩١٥ وجد الاتراك مجالاً رحباً وفرصة ذهبية لتحقيق غايتهم المنشودة وتنفيذ خططهم المشؤومة الرامية في ابادة الأرمن عن بكرة أبيهم والقضاء عليهم قضاء تاماً لا تقوم لهم من بعده قائمـة وتصفية القضية الارمنية تصفية نهائية . ان الزعامة التركية سلبت ونهبت وهدمت ومحت كل اثر من المعالم الاثرية الفنية الخالدة ، التي بوجودها الصامت وجلالها المشرئب كانت أصدق وثيقة تاريخية وخير دليل وشاهد على موهبة ونبوغ ارابها،الملاك الشرعيين لتلك الديار والاقاليم المهجورة التي عملت فيها يد الدمار والهدم وجعلتها انقاضاً وخراباً .

ان المباني الدينية ، بصفاتها المختلفة ومزاياها الفنية ومكانتها المرموقة ، في ازدهار وحضارة وفن العمارة ، وكمؤسسات علمية ،وبيوت زهد وعبادة،تروى لنا الكثير من حضارة امة حفظها التاريخ على صفحات من حجارة . ولكنها دمرت وسحقت ودنست ، من قبل جماعة متأخرة همجية مفعمة وثملة بالدعاية العنصرية العمياء ، استشرى الجهل في عروقها فغرتها الأماني وأضلها الغرور ، فجعلت تلك الأبنية النفيسة التاريخية هدف ومرمى مدافعها الهدامة، تعصف وتدك الواحدة تلو الاخرى ، أو اضرمت فيها النار لتأتي على نفوس أبنـــاء الانسانية من أطفال ونساء وشباب وشيوخ وتهشم كل نفيس وغال . فخلال عام ١٩١٥ فقط قصفت المدافع التركية وهدمت ثلاثين (٣٠) ديراً في ولايتي « وان » و « موش » من مراكز الثقافة الوطنية المهمة ، كـــدير القديس كرابيت ودير آراكيلوتس (دير الرسل) ودير فاراك وناريك (هـــذا الدير الذي عاش ونبـغ فيه ذلك الذي اطلق عليه في أيامنا ، تقديراً لمؤلفاته

القيمة لقب أكبر شاعر مسيحي في القرون الوسطى ، هو الفيلسوف الشاعر كريكور ناريكاسي) ودير القديس اوهانيس ودير القديس اغبيرنيك، ودير كارمرافور ودير الصليب المقدس ودير القديس كريكور في سارنباض وجارهان ودير القديس (نشان) حيث كان يوجد ضريح المؤرخ والشاعر يغيشه)ودير القديس « توماس » ودير « هوموتس » ودير الاعجوبي وغيرهامن الأديرة التاريخية التي دمرتها يد الشر تدميراً كاملا او تركتها في حالة انقاض يرثى لها[٨] . « يجب ان يزول من هذه البلاد أثر الارمن او أثر الأتراك »هكذا كان يردد حيث ذهب وحلّ ، جودت باشا الحاكم العسكري في ولاية وان .

إن هذه الحالة الفريدة من التدمير والتخريب والفتك قد دامت في جميع أنحاء البلاد مدة ثلاث سنوات وحتى في السنين التي تلتها . لقد كتب المؤرخ كيفورك ميسروب متحدثاً عن خسائر المباني والمؤسسات الدينية الأرمنية التي طحنتها يد الشر ، خلال ١٩١٥ — ١٩٢٢ ، فقال[٧] «ان اكثر من الف كنيسة قد دمرت تدميراً كاملا و (٦٩١) ابنية دينية قد تعرضت كنوزها للنهب والسلب من قبل الاتراك » ان الكاتب المذكور اعد بياناً مفصلاً عن الإرث الفني والادبي من دخائر وبقايا القديسين الجليلة ومن مصوغات ذهبية مشبكة ، وفضية رفيعة فنية وأوان أثرية وأثواب كهنوتية مرصعة مزركشة ومخطوطات تاريخية وتصاوير ورسومات وزخارف مطبوعة على الخشب ، وقطع نادرة منقوشة وبراءات الجثالقة (الكاثوليكوس) ونشراتهم العامة ، ومؤلفات دينية وعلمية قيمة ولوحات زيتية وأنصاب ورسوم منحوتة .

إن كل هذه النفائس والفرائد والكنوز ، أصبحت هشيماً لنار الجهل والبربرية وقضى عليها قضاء مبرماً وطوتها يد الفناء الى الابد .

أما شأن ونصيب الابنية والاثار الباقية فلم يكن بصورة عامة في المستقبل اوفر حظا ، فقد تحولت الى مخازن ومستودعات ومكادس خاصة بالبلديات ، او تحولت بعد ادخال بعض التغييرات في هندستها الى مساجد وجوامع ،

وانهـــا تقدم في الوقت الحـــاضر الى السيّاح والزوار المعـدودين الذين يزورونها بعد مشقة لا توصف ، لوعرة المسالك والطرق المؤدية اليها ، بانها نماذج حقيقية من الريازة (فن العمارة) السلجوقي او العثماني .

يعتبر اللورد كينروس (الإنكليزي) ، احـــد هؤلاء الذين تعرفوا خلال السنين الاربعين الاخيرة ، الى المناطق الشرقية ، وعرفوا حقيقتهـــا العارية معرفة تامة .ففي تأليفه الذي سماه « في جبال طوروس[١٠] » يصف لنا سفره عبر الاناضول وارمينيا وكردستان . والمعروف عن هذا البحاثة انه يميل الى العنصر التركي ، حتى انه اعتبر المذابح والمجازر التي ابتلى بها الارمن خلال سنوات ١٩١٥ ١٩١٨ . بانهـــا كانت « ضرورة سياسية يائسة » ولكننا نراه يتحدث ، كعالم عارف، بشيء من الحسرة والأسى ، عن التمدن والحضارة الارمنية وعن اربابها المشاهير ومحترفيها الماهرين الذين اختفوا من تلك الديار العامرة ، ويصف لنـــا الدكتور كينروس ، وصفاً دقيقـــاً ، آثار مدينة آني الباقية المتروكة نهائيا لرحمة القدر والعوارض الجوية كما يصف كنيسة « اراكيلوتس » (الرسل) في « قارس » التي تحولت الى مخزن من مخازن البلدية هناك ، والجامع المسمى (جيفته مناره مسجد المنـــارتين) المعروف اليوم رسمياً بانها من آثار السلجوقيين . (ان هذا البناء دون ان نعتبر تواريخ اقسامه الذي بنيت حديثاً ، قـــد شيّد في سنة ٩٦٢ م ، ومن المعروف ان الهجمات والفتوحات السلجوقية قدبدأت بعد هذا التاريخ .)

وبمقارنة حالة ولاية (وان) الحاضرة المخزنة القاتمة بماضيها المزدهر المشرق يروي لنا المؤلف المذكور اعترافات ضابط تركي . فيقول ان من المعـــابد السبعة في دير « فاراك » لم يبق منها اليوم سوى معبد واحد وهو في وضع نصف انقاض وخراب ، ان تلك المعابد قد دمرت من قبل جودت باشا سنة ١٩١٥ ، اما في وصف بعض بقايا كنائس مدينة « وان » يقـول كينروس « انه من المؤسف ان نقول بان تخريب الصلبان وهدم الجدران المزخرفة المصورة بالرسومات الفنية النادرة قد حصل في المدة الاخيرة [١١]

اما في الكتاب المسمى مفاجآت « كردستان » فقد يصف لنا مؤلفة الكشاف الافرنسي « فرانسوا بالسان » سفره الى هذه الولايات (المحرّمة الممنوعة). واننا نجد في هذه الدراسة كثيراً من المغالطات والاخطاء التاريخية والاراء السياسية ، الشيء الذي نستغربه كثيراً من مؤلف أوروبي مثقف ، ومع هذا فاننا نجد بجانب الحقائق التاريخية المشوهة المزورة ، بعض النصوص التي تستحق الانتباه وتستوجب التمعن فيها . ويكفي هنا ان نذكر ذلك المقطع من كتاب المؤلف ، حيث يروي لنا حديثاً جرى بينه وبين الضابط التركي صدقي بك ، الذي كانت الحكومة التركية عينته مرافقاً وترجماناً له اثناء تجواله وسفره عبر الاراضي التركية ، فقد قال الضابط التركي ، صديق بك ، يوما للمؤلف بالسان بلهجة الصارم الحازم « ان افناء الارمن وابادتهم من الوجود كان امراً ضرورياً لا بد منه وعملاً نافعاً رائعاً ، ان كلمة أرمن يجب ان لا تدل على معنى ومفهوم ، ان ذكرهم وعمرانهم ومبانيهم ، وحتى ادنى اثر من اثارهم وسيرتهم يجب ان تتلاشى وتزول من هذه المعمورة . هذا ما يتطلبه العرف والقانون » (١٢) .

وفي مكان اخر من نفس الكتاب يتحدث مؤلفه فرانسوا بالسان عن كنيسة القديس اسطفان الارمنية الكائنة على الحدود الايرانية التركية ، ويروي لنا حديثاً وقحاً ماجناً ، جرى على اطلال الكنيسة بينه وبين صدقي بك وبعض الضباط من الجيش التركي

قال صدقي بك مخاطبا بالسان الافرنسي ومشيرا الى الكنيسة .

ارجو ان تكون هذه اخرى الكنائس الارمنية .

لفظ هذه الجملة كعادته ، في انشراح ظاهر لا يوصف « ثم اضاف مترجما اقوال احد الضباط الاتراك المرافقين ، « أتعرف ماذا يقول هذا الضابط ؟ ـ انه يقول باننا لم نيأس ابداً من « انهائها » ان عزيمتنا ازدادت مع الزمن ولكن كانت المتفجرات تنقصنا فمهما كان حجرها صلباً فلا بد ان نقضي عليها يوماً وما ان نحصل على المتفجرات ولو كانت قنبلة يدوية صغيرة ، حتى تنال هذه المباني نصيباً منها (١٣).

بعد فرانسوا بالسان الافرنسي، تمكن فيما بعد، بعض الصحفيين الانكليز من الحصول على امتياز خاص بالسفر ضمن اقاليم «ادرفان»، و«اولتي»، و«تورتوم» والقيام بزيارات ودراسات الاماكن والمباني الاثرية التاريخية فكتب هؤلاء الصحفيون في تقاريرهم يقولون[١٤] «كان من الممكن انقاذ الاثار القيمة وجواهر الريازة الموجودة في هذه الاقاليم، ولكنها بقت مهجورة مسيبة معرضة لمعاملة قاسية وحشية ولم تصادف يداً تعتني بها وتنقذها من الدمار والخراب». ويزيد هؤلاء الباحثون في وصف الحاله المؤسفة ويقولون، ان عدداً كبيرا من الكنائس والمؤسسات الدينية الارمنية قد دمرت وهدمت واستعمل القرويون الاتراك حجارتها في بناء منازلهم. ويتعجب الصحفيون الانكليز، ويتسألون بطوية سليمة ولكن بسذاجة، كيف يسمح علماء الاثار الاتراك بهذا الوضع القائم المستمر؟ اجل انها حقيقة صارخة قهرت العدوان، وان الظواهر والمشاهد تثبت هذه الأقوال واننا نجد اليوم في المقاطعات الشرقية من تركيا، عددا كبيراً من المنازل القروية بنيت جدرانها بأحجار مزخرفة ونقوش ناتئة وتحمل تواريخ ودلائل تدل على انها من الاثار الارمنية، ان الذي يتنقل في تلك المقاطعات التركية يصادف هذه الحقيقة الصارخة، ان تخريب واخفاء اثار الحضارة الأرمنية الباقية في تلك الولايات الارمنية التي استولى عليها الاتراك ما تزال مستمرة حتى اليوم. فكنيسة القديس «نشان» في «سباسطية» كانت قد نجت من الدمار ابان حوادث ١٩١٥ – ١٩١٨ الوحشية الرهيبة، ولكنها هدمت فيما بعد، وزالت عن الوجود، فلا نجد لها اليوم انقاضا واثرا، ويقول اللورد كينروس، «ان الاثار الباقية في ولاية «وآن»، تعرضت بقساوة في المدة الاخيرة الى عمليات تدمير جديدة» كما ان العالم ما زال يذكر ذلك الخبر الذي اذاعته المصادر التركية بفطنة وعن قصد، بان ذير «خيتسكونك» الرائع قد هدم بالديناميت.

واننا اذا اردنا ان نفترض جدلاً ونعتقد بان ليس هناك اليوم خطة مرسومة تستهدف تدمير ما تبقى من الاثار التاريخية الارمنية، فاننا لا نجد

وليست من الحكمة بل من المنكر والعار ، ان نتغافل عن اثار فنية نفسية ونتركها لرحمة العوارض الطبيعية ولشهوة شعب لم يساير عصره ثقافته ومدنيته وما زال متمسكاً بتقاليده وعاداته الموروثة في التخريب والهدم والتدمير .

الى جانب المباني التي استبقاها الاتراك ويزعمون انها من الاثار السلجوقية او العثمانية ، ما تزال هناك بعض المباني التاريخية التي اطلع عليها علماء ومؤرخو الاثار والفنون ويشهد بوجودها وقيمتها . فمن تلك الشواهد الاثرية المعروفة المشرئبة كنيسة « اختمار » وكنيسة « آني » . فلا ريب اذا صادف وتلاشت هذه الاثار على حين غفلة ، فان ذلك سيخلق موجة من الكدر والاسى ، وقلقاً عاماً في اوساط الفن العالمي . لقد كان لموقع مدينة « آني » ، الجغرافي فضلاً كبيراً على دخر بعض آثارها ، فوجودها على حدود ارمينيا السوفياتية ، قد استبقى اثارها وحفظها من التخريب والافناء . وكم نتمنى ان يدوم هذا الاستبقاء والحفظ ، ولكن هيهات ! ان الصور الفوتوغرافية الحديثة الاخيرة تشير الى خلل وخروق خطيرة تصدع جدران كاتدرائية القرن الثاني وتهدد سلامة البناء . (يعتبر هذا البناء من أشهر ما أبدعته الريازة الارمنية ، وانه من روائع المهندس المعماري المبدع (درطاد) الذي رمم أيضاً قبة كنيسة آيا صوفيا في استنبول) .

كما ان الدلائل تشير الى ان الآثار والمباني الباقية في عاصمة الدولة البكرادونية قد اصابها الخلل والتلف وارتسمت فيها الخروق والشقوق ولسنا ندري الى متى ستبقى هذه المآثر محرومة من يد العناية والمعرفة ، في كآبة صمت تلك الديار المهجورة القاحلة وعبوسها المخيف .

كان الشعب الارمني خلال تاريخه الطويل ، محباً متعصباً للبناء والعمران يكنّ دائماً تقديراً فطرياً للجماليات وإعجاباً فريداً للثقافة والعلم والحضارة . ففي سنة ١٩١٥ حيث كانت يد الجهل تنشر الخراب والدمار وتسوق أمة سوق النعاج في طريق التشريد ، وتفتك بالأرواح خبط عشواء ، كان أرمن ولاية « موش » يحملون معهم ، على الرغم من ضعفهم وجروحهم في

طريق تهجيرهم الى الأراضي الروسية قطعتين نفيستين من نوادر الأدب والفن. كانت احدى هاتين النادرتين ، مخطوطة فريدة في الشعر والتراتيل الدينيـــة كتبت على الرقوق . وأما النادرة الثانية فقد كانت الباب الرئيسي المزخرف لدير اراكيلوتس (الرسل) الشهير . لقد ابادت يد الشر أكثرهؤلاء المهاجرين المغلوبين على امرهم ، ولكن تمكن الباقون من انقاذ النادرتين بعد صعوبات وتضحيات لا توصفان ، فوصلتا سليمتين الى مكانهـا الامين . ان المخطوطة المشار اليها تعتبر اليـــوم فخر المكتبة الوطنية في ارمينيا ، كما ان باب دير الرسل الفريد في فنه وصنعه ، يتربع قاعة متحف « يريفان »

إن هذا التفاني في عبادة نوادر الفن وتقديرها لهو خير دليل وشاهد يثبت اثباتاً قاطعاً ان ما أن تسود العدالة وينتصر الحق ، ويعود الارمن الى ديار اجدادهم وآبائهم ، سوف يطلقون العنان لموهبتهم ويبدعون من جديد ، بنفس الغيرة والحمية في فن البناء ومجالاته . وبانتظار ذلك الفجر الجديد ، فلا بد انه يتوجب على الانسانية المتمدنة ان تمنع وقوع مصائب جديدة من شأنها تحويل ما تبقى من الآثار العمارية الفنية الارمنية في تركيا الى رماد ، وانقاذ تلك الآثار العريقة في مدنيّة تمت الى آلاف السنين .

وانه لبعيد عن العقل والمنطق أن نرى الهيئات الدولية التي تعتبر نفسها حامية وناشرة الفن والثقافة كالاونسكو مثلاً ، نراها مكتوفة اليدين ولم تقم حتى الان بأي عمل محسوس وأية اجراءات فعـــالة ومفيدة لصيانة الاثار الارمنية في تركيا ومن ثم دعمها ودراستها ، كما وأنه من غير المعقول ايضاً ان نتحمل ، غير مكترثين ، اختفاء الجواهر والحلي الهندسية التي كان تأثيرها على تطور الفن المسيحي ظاهراً على حقيقته .

يجب اذن القيام بتنظيم فرق اخصائيين وارسالها الى تلك الاماكن للاطلاع عليها ولوضع جدول بالآثار المتبقية حيث تكون ، ثم تصويرها ووضع مخطط لها ، ودرس بنائها . ويجب ايضا اتخاذ التدابير الفعّالة والقيام بالاجراءات اللازمة لدعمها ، فالواجب اذن هو انقاذ ما يمكن انقاذه الان ، بانتظار اليوم الذي يصار الى اعادتها الى حالتها الأصلية واعادة ابنيتها المهدمة ، على يـد فروع واحفاد اربابها الذين كانوا قد شيدوها في احد الايام .

المراجع

١ – (مواد لتاريخ الهندسة الارمنية) في مجلدين : تأليف طوروس طورامنيان صدر في بريفان سنة ١٩٤٢ و ١٩٤٨ (باللغة الارمنية) .

٢ – J. STRZYGOWSKI: " Die Baukunst der Armenier und Europa " صدر في فيينا سنة ١٩١٨ .

٣ – J. BALTRUSAITIS : " Art Sumérien, art roman " (1934) et " Le problème de l'ogive et l'Arménie " (1936),
اصدار مكتبة E. Leroux في باريس .

٤ – مقدمة بقلم هنري فوسيبون في كتاب
Etudes Sur l'art médiéval en Géorgie et en Arménie "
تأليف : J. Baltrusaïtis. باريس ١٩٢٩ .

٥ – راجع مقالات كيفورك ميسروب في مجلة (هايستاني كوجناك) الاسبوعية اعداد حزيران سنة ١٩٣١ .

٦ – أديرة فاسبوركان (في ثلاث مجلدات) . تأليف الأب هازاسب فوسكيان صدر في فيينا . (باللغة الأرمنية) .

٧ – (الخسائر الارمنية في الفنون الجميلة) :
مقالات بقلم كيفورك ميسروب نشرت في مجلة (هايستاني كوجناك الارمنية) أعداد حزيران ١٩٣١ .

٨ – للاطلاع على ابادة المباني ألاثرية الأرمنية . راجع مذكرات المؤلف فاهان بابازيان (النائب السابق في البرلمان التركي ايام تركية الفتاة) ثلاثة اجزاء (باللغة الأرمنية) .

٩ – راجع كتاب (Within the Taurus) تأليف اللورد كينروس – لندن ١٩٥٤ – (صفحة ١٢١)

١٠ – راجع كتاب اللورد كينروس.

١١ – راجع كتاب اللورد كينروس (صفحة ١٢١) .

١٢ – راجع كتاب « Les Surprises du Kurdistan » تأليف فرانسوا بالسان . نشر G. Susse باريس . ١٩٤٥ (صفحة ٦٩) .

١٣ – مصدر (١٢) صفحة ٢٧١ – ٢٧٢ .

١٤ – راجع مجلة تايز اللندنية العدد ٢٠ و٢٥ م من شهر نيسان ١٩٦٣ .

الخاتمة

لقد رأينا ان مشروع الابادة العنصرية الذي ارتكبته السلطات التركية فى عام ١٩١٥ ضد الامة الارمنية لم يكن سوى مشروع لافناء كافة السكان الارمن الموجودين داخل الحدود العثمانية • ولم ينج من هذه الابادة سوى القسطنطينية وازمير ، انما اخذت ازمير نصيبها من ذلك عندما دخلها الاتراك فى عام ١٩٢١ بعد اندحار اليونان • تمكن طلعت باشا ، وزير الداخلية التركي ، ان يتباهى بانه فعل فى غضون ثلاثة اشهر ما لم يتمكن ان يفعله السلطان عبد الحميد خلال ثلاثين سنة •

وبنتيجة المذابح والابعادات التي نظمتها الحكومة التركية ونفذتها ضد الشعب الارمني فى عام ١٩١٥ والاعوام التي تلتها ، لم يبق ارمن فى ارمينيا التركية ولا فى تركيا قاطبة ، باستثناء القسطنطينية • ذلك ان اكثر من نصف الارمن قد هلكوا على يد السلطات التركية وما تبقى هرب من الارهاب التركي الى انحاء المعمورة •

فى عدد محدد (فان وموسا داغ وشابين كراهيسار) لجأ الارمن الى الدفاع عن انفسهم مستعملين اسلحة بدائية وماتوا ميتة الابطال •

من حسن الحظ انقذت فى عام ١٩١٨ منطقة صغيرة من ارمينيا الروسية من الهجوم التركي بفعل المقاومة البطولية التي ابداها الشعب الارمني ، بعد ان جلت الجيوش الروسية عن جبهة القفقاز نتيجة الثورة البلشفية •

اعلنت ارمينيا استقلالها ضمن هذه المنطقة الصغيرة (البالغة مساحتها ١٢ الف كيلو متر) فى ٢٨ ايار ١٩١٨ بانتظار انتهاء الحرب من اجل انصافهم هذا الانصاف الذي وعدتهم به التصريحات التي ادلى بها الحلفاء خلال الحرب •

لقد نصت الهدنة التي فرضها الحلفاء على تركيا على انسحاب القوات التركية الى وراء الخطوط التركية الروسية لعام ١٩١٤ • وبنتيجة ذلك توسعت نوعا ما الجمهورية الارمنية فشملت كامل ارمينيا الروسية • إنما لم يجر أي عمل بشأن ارمينيا التركية التي بقيت تحت الرقابة التركية ولم تسحب اسلحة الجيوش التركية •

بعد مرور سنة على تأسيس ارمينيا كانت قد اصبحت دولة منظمة مجهزة بجهاز اداري كفؤ • وقد اعترف باستقلالها عدد كبير من الامم وتبادلوا معها التمثيل الدبلوماسي و سافر وفد عن الحكومة الارمنية الى باريس للاشتراك فى مؤتمر السلم •

ان انشاء الجمهورية المستقلة كان اشارة الى الموجة الوطنية التي جندت حولها الارمن من جميع اطراف الدنيا • وقد اختار العديد منهم تقديم اشتراكه لاعادة بناء الوطن الام •

فى كانون الثاني عام ١٩١٩ قامت الدول الكبرى ــ انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا ــ بوضع مسودة لقاعدة عامة تحدد اهداف حرب الحلفاء • وقد شملت هذه المسودة الفقرة التالية فيما يتعلق بتحرير الشعوب المستعبدة فى الامبراطورية التركية :

« من جراء سوء ادارة حكومة الاتراك للشعوب التابعة لها وبسبب مجازر الارمن المريعة وخلافها مما جرى فى السنين الاخيرة ، اتفق الحلفاء مع القوات المتحالفة معها على ان تسلخ كليا ارمينيا وسوريا وما بين النهرين والعربية عن الامبراطورية العثمانية » •

بتاريخ ١٩|١|١٩٢٠ اعترف مجلس الحلفاء اعترافا واقعيا بارمينيا وحكومتها •

وقعت معاهدة الصلح مع تركيا فى سيفر بتاريخ ١٠|٨| ١٩٢٠ • وقد جرى تمثيل ارمينيا فى مؤتمر سيفر وكان ممثلها احد موقعي المعاهدة • احتوت المعاهدة على المواد الاتية بشأن ارمينيا :

المادة ٨٨ : تعترف تركيا بارمينيا كما سبق ان اعترفت بها قوات الحلفاء ، بانها دولة حرة ومستقلة •

المادة ٨٩ : لقد وافقت كل من تركيا وارمينيا ، كما وافق كل من

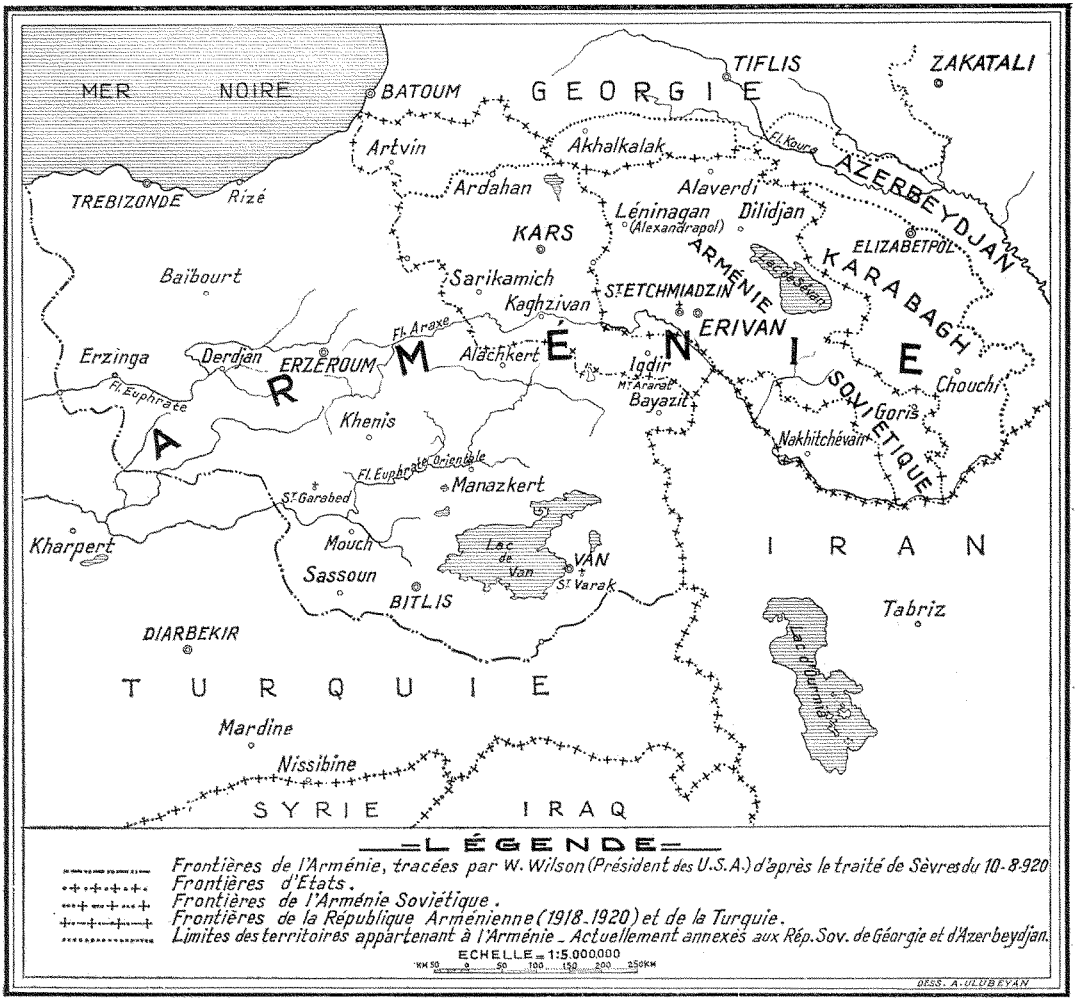

LÉGENDE

Frontières de l'Arménie, tracées par W. Wilson (Président des U.S.A.) d'après le traité de Sèvres du 10-8-920

Frontières d'Etats.

Frontières de l'Arménie Soviétique.

Frontières de la République Arménienne (1918-1920) et de la Turquie.

Limites des territoires appartenant à l'Arménie - Actuellement annexés aux Rép. Sov. de Géorgie et d'Azerbeydjan.

ECHELLE = 1:5.000.000

KM 50 0 50 100 150 200 250 KM

DESS. A. ULUBEYAN

الاطراف المتعاقدين السامين الاخرين ، ان يحيلوا الى التحكيم امام رئيس الولايات المتحدة الاميركية مسألة تعيين الحدود بين تركيا وارمينيا فى مقاطعات ارزروم وترابيزوند وفان وبتليس • كما اتفقوا على قبول قراره والشروط الاخرى التي يحددها فيما يتعلق بوصول ارمينيا الى البحر وفيما يتعلق بنزع سلاح المنطقة العثمانية الملاصقة للحدود المذكورة » •

كان المفروض بمعاهدة سيفر ان تكون تعويضا للارمن عما قاسوه من الآم ومكافأة لهم من اجل اسهامهم مع الحلفاء فى مجهود الحرب ، ذلك لان الارمن كانوا قد حاربوا منفردين ضد الاتراك فى القفقاز بعد انسحاب القوات الروسية • وبهذه الطريقة اخروا الاحتلال التركي الالماني لباكو (مركز النفط) لمدة سبعة اشهر • وكان الارمن قد كونوا كذلك قوات متطوعة كبيرة لتحارب الى جانب الجيوش الروسية فى جبهة القفقاز ومع القوات الحليفة فى الشرق الاوسط ، هذا بالاضافة الى العدد الكبير من المتطوعين فى جيوش الحلفاء •

الا انه لم يكتب لمعاهدة سيفر ان تقوم بتنفيذها القوات من جراء الحوادث التي تلت • فاستغلت الحركة الكمالية تنافس الدول المتبادل وبمساعدة السوفيت تمكنت من وقف تنفيذ المعاهدة • ولم يمض سوى شهر واحد على توقيع معاهدة سيفر ،ففي ايلول عام ١٩٢٠ قامت تركيا الكمالية بالهجوم على جمهورية ارمينيا .و فى ٢|١٢|١٩٢٠ سقطت ارمينيا بعد دفاع بطولي ودون ان تتمكن من الحصول على مساعدة الحلفاء • وقد ضمت تركيا الى اراضيها حوالي ثلث بلاد ارمينيا • ورافق هذا الضم المذابح والنهب بينما اضطر ما تبقى منها ان يستسلم الى انذار سوفياتي ويقبل بالنظام السوفيتي •

قبل الحلفاء بالوضع الجديد ووقعوا معاهدة جديدة مع تركيا ، معاهدة لوزان • وكان ذلك فى تموز عام ١٩٢٣ ولم تذكر اميركا فيها ابدا • كان المؤتمر قد عالج المسألة الارمنية ولكنه لم يتوصل الى حل بسبب العناد التركي فضمت الى فئة المسائل التي لم يتوصل المؤتمر الى حلها •

كانت النتيجة ان الاتراك لم يضعوا يدهم على ارمينيا التركية فحسب وانما ضموا اليها بالقوة ثلث ارمينيا الروسية لقد ذبح قسم من السكان الارمن

الابرياء وابعد غيرهم بالقوة وقسم منهم تمكن من الفرار الى القفقاز •

ان هذه الاراضي ما تزال تحت الاحتلال التركي •

اما القسم المتبقي ، فبعد ان فقد استقلاله ، اصبح يشكل حاليا احدى الجمهوريات الخمس عشرة التي يتألف منها الاتحاد السوفيتي •

يوجد الآن ١،٩٠٠،٠٠٠ ارمني يعيشون فى ارمينيا السوفيتية ، بينما القسم المتبقي من الأرمن يبلغ مجموعهم اربعة ملايين ونصف وهو الاكثرية الساحقة ما يزال يعيش فى خارج ارمينيا •

ان كثافة السكان قليلة فى المقاطعات الارمنية الموجودة داخل اراضي تركيا اليوم (المقاطعات التي كانت قديما تسمى ارزروم وفان وبلتيس وفارس واردهان) ، بحيث يبلغ معدلها |١٠| لكل كلم مربع • كان معدل نفس هذه المقاطعات اكثر من |٣٠| لكل كلم مربع قبل عام ١٩١٤ عندما كان يعيش فيها الارمن الاصليون • لذلك من العدل ان نستنتج ,إن الاتراك قد اثبتوا انهم غير قادرين على تسكن المناطق المبحوث عنها بالرغم من جهودهم وبالرغم من ان المكان الذي كان يعيش فيه الارمن ما يزال خاليا •

وبما ان الارمن الموجودين فى خارج ارمينيا يزيدون من اسهامهم فى المدنية العالمية عن طريق انتاج اشخاص موهوبين ولهم كفاءات عالية فى حقول الفن والعلوم وخلافها من مظاهر الثقافة الانسانية، نجد ان ارمينيا التاريخية القديمة الواقعة حاليا تحت الاحتلال التركي قد اصبحت بلاد جرداء يختفي منها التمدن القديم .ويمكن للمرء ان يتحقق من اهمية الخدمة التي يقدمها الارمن للجنس البشري اذا اتيحت لهم فرصة العيش مع بعضهم مرة ثانية فى وطنهم الام • وهناك يمكنهم بواسطة مواهبهم الفردية واخلاقهم الوطنية ، التي سبق ان اثبتت قيمتها فى الماضي ، يمكنهم ان يسهموا مرة ثانية فى مجهود الجنس البشري فى طريق الحضارة •

من استعراض المأساة الارمنية لعام ١٩١٥ يمكننا استنتاج ما يلي :

(١) اتبع الاتراك ، بقيادة حزب الاتحاد ، السياسة الطورانية التي كانت تهدف الى الاتحاد مع الشعوب الاخرى المنتمية الى نفس العنصر الموجودة فى القفقاز وفى اواسط آسيا • ابتدأت الطورانية مع الامبراطورية العثمانية وقد انشأها ونظمها الاتراك الشباب واكملتها الحكومة الكمالية •

وكانت ارمينيا تشكل عائقا فى وجه تحقيق هذه السياسة •

(٢) وفضلا عن ذلك كان يرغب الاتراك فى التخلص من العناصر غير التركية وفى انشاء اناضول تركي متجانس للتمكن فى المستقبل من التخلص من التدخل الاوروبي ومن تقسيم ما كان يعتبره الاتراك بانه تركيا الاصلية وذلك نتيجة لاحياء الوطنية بين العناصر غير التركية .

(٣) الحرب العظمى التي قدمت للاتراك فرصة فريدة لتنفيذ مخططهم لحل المسألة الارمنية عن طريق ابادة الارمن ، لذا قاموا بابادة عنصرية ضد الامة الارمنية عام ١٩١٥ وذلك بوضع وتنظيم موت اكثر من نصف الارمن الذين كانوا يعيشون فى الامبراطورية العثمانية •

(٤) ان الابادة العنصرية تشكل جريمة بموجب القانون الدولي • وفضلا عن ذلك ، فان ميثاق الابادة العنصرية لعام ١٩٤٨ ونصوص حقوق الانسان المدرجة فى ميثاق الامم المتحدة والتصريح العام الخاص بحقوق الانسان لعام ١٩٤٨ ، ان كل ذلك يمنع بصراحة هذه الاعمال ويضع مسؤوليات على افراد المجتمع الدولي لوقف البدء فى الابادة العنصرية او الاستمرار فيها ويجبر الفاعل على اصلاح الاخطاء المرتكبة •

(٥) بمناسبة الذكرى الخمسين للابادة العنصرية عام ١٩١٥ يتوجب على العالم ان يتحد ليظهر عدم موافقته ومقته وجزعه من الافعال المرتكبة • ان ذلك مهم لحضارتنا ولقيمتنا ولادراكنا للعدالة حتى يشعر الاتراك بانهم لم ينجوا منها •

(٦) يلزم انصاف الامة الارمنية عن طريق ايجاد امكانية للارمن للعودة الى وطنهم الام وان تترك لهم فرصة تقرير المصير ليتمكنوا من الاسهام فى الحضارة العالمية عن طريق عملهم الخلاق على اسس ثقافتهم المميزة القديمة • ان مبدأ تقرير المصير الذي نص عليه ميثاق الامم المتحدة والعناصر الاساسية للعدالة يجب ان تقنع العالم بانه من غير العدل ان يترك شعب يعتز بثقافته القديمة ومرتبط بذاتيتها ويحس بفرديته وخصائصه الوطنية وليذبل عن طريق الموت البطيء فى الوقت الذي يكون فيه وطنه الام ومنذ الاف السنين خاليا ومقفرا وخاربا •

(٧) واخيرا ، ان تسوية المسألة الارمنية تجلب السلام الى كافة المنطقة. فلا توجد طريقة افضل لجلب السلام من انصاف لإحلال ومن اعطاء كل ذي حق حقه . ان الحروب السابقة اوضحت تماما ان الاستثمار الذي يجلب منافع مؤقتة بنتيجة القوة لا يفيد فى النهاية . ان عاجلا او آجلا سوف ينال كل منا حصته فى الدماء والشدة اذا لم تنته اللعبة القديمة لسياسة القوة واذا لم تكن قلوب زعماء الامم مليئة بعزم على اعادة بناء عالم جديد يتمتع بمستقبل متزن على اساس العدل الكامل .

مكتب المعلومات الارمني
صندوق البريد : ١٢٤٥
بيروت ـ لبنان